جائزة الكُتبيّين
في بلاد الباسك
أوسكادي
2022

دولفين دو فيغان

الامتنان

رواية

ترجمة:
عبد الوهّاب عيساوي

الترجمة جيدة جدًا، لا تفزعوا من الهوامش في البدايات، بعدها بقليل ستُفهَم لماذا بدَت على ما هي عليه..

س.

ماري

هل سبق أن تساءَلْتُم: كَمْ مرّةً في اليوم ردَّدتُم كلمة «شكرًا»؟ شكرًا من أجل الملح، من أجل غلق الباب، من أجل المعلومة.

شكرًا من أجل الفكّة، من أجل الخبز، من أجل علبة السّجائر.

ينبع ترديد عبارة «شكرًا» من باب الأدب، أو من الذّوق الاجتماعيّ، أو قد تكون تلقائيّةً، آليّة.

ومرّات تكون، تقريبًا، دون معنى.

وأحيانًا تُنسى.

أو قد تكون مبالغةً في تأكيدها: شكرًا لك، شكرًا على كلّ شيء، شكرًا جزيلًا.

بالغ الشُّكر.

ربّما اتّخذت عبارة «شكرًا» شكلًا مهنيًّا: شكرًا على ردِّكم، على انتباهكم، على تعاونكم.

هل سبق لكم أن تساءَلْتُم: كم مرّةً في اليوم عَنَيتم الشُّكر؟ الشُّكر الحقيقيّ. التعبير عن امتنانكم، عن تقديركم، عن دَيْنكم.

ولِمَنْ تُوجّهونه؟

قد يكون مُوجّهًا إلى الأستاذ الّذي أرشدكم إلى الكِتاب؟ أو إلى الشّاب الّذي مدّ لكم يد العون يوم تعرّضتم إلى الاعتداء في الشّارع؟ أو إلى الطّبيب الّذي أنقذ حياتكم؟

أو ربّما إلى الحياة نفسها؟

اليوم رحلتْ المُسنّة العزيزة على قلبي.

ردّدتُ دائما: «لطالما كنتُ مدينةً لها بالكثير».

و«ربّما، من دونها، ما كنتُ هنا».

قد قلتُ أيضا: إنّها تعني لي الكثير.

هل يُمكن النّظر إلى الامتنان على أنّه واجب أو نوعٌ من الحِساب؟ لكن هل يكون بذلك كافيًا؟ هل عبّرتُ عن شكري كما ينبغي؟ هل وفّيتُها حقّها كما تستحقّ؟ هل كنتُ قريبة منها بما يكفي، حاضرةً في حياتها بالقدر المطلوب، ثابتةً في وجودي كما كان ينبغي أن أكون؟

أتذكّر الأشهر الأخيرة، والسّاعات الأخيرة... أحاديثنا، ابتساماتنا، لحظات صمتنا. أحيانًا تعود إليّ بعض اللّحظات الّتي عِشناها معًا، وتتلاشى أخرى، فأجدني أبحثُ عمّا ضاع منّي، وأحاول أن أسترجع ما لم يعد في متناولي. أحاول أن أستعيد اللّحظة الّتي أدركتُ فيها أنّ شيئًا ما قد اختلّ، وأنّ الوقت منذ تلك اللّحظة لم يعد حليفنا.

حَدَثَ كلُّ شيء فجأة، بين ليلة وضحاها، لكنّني لا أُنكر أنّه لم تُكن ثمّة علاماتٌ مُنذرةٌ.

أحيانًا، كانت ميشكا تقفُ في منتصف الصّالون مُشتّتة الذِّهن، كأنّها لا تعرفُ من أين تبدأ. باتتْ هذه العادات تتكرّر كثيرًا معها، وأحيانًا تغيب عنها فجأةً.

في مرّات أخرى تُضطرّ إلى التّوقّف عن الكلام في منتصف الجملة مصدومةً بالمعنى الحرفيّ لكلامها، كأنّها تقفُ في مواجهة أشياءٍ غامضةٍ. تبحثُ عن كلمةٍ فتجد أخرى. أو قد لا تعثر على شيء، سوى الفراغ الّذي بات مثل فخٍّ وجب عليها تجنّبه. علما أنّ ميشكا طوال تلك الفترة كانت تعيش وحيدةً في بيتها، تُواصل المطالعة أو مُشاهدة التلفاز، وأحيانا استقبال بعض الزُوّار.

ثم حلّ الخريف ولم يحمل معه أيّ جديد. ليس مثل السّابق. فقد كانت الأمور كلّها على ما يُرام، ثمّ تغيّر كلّ شيء.

أتخيّلها وحيدةً في بيتها ذي السّطح الواطئ مُستلقيةً على أريكتها. تنفرجُ السّتائر المُسدلة خلفها عن فجوة تُبدي ضوءَ النّهار، ويميلُ لون الجدران حولها إلى الأصفر. تبدو كلّ الأشياء المحيطة بها؛ الأثاث، اللّوحات، التُّحف المصفوفة على الرُّفوف، كأنّها مُستعادة من زمنٍ بعيد.

كانت تُدعى ميشكا، امرأة مسنةً بملامح شابّة. أو لعلّها شابّةً زحفت إليها الشيخوخة في غفلةٍ منها، هي ضحيّة سحرٍ قبيحٍ. كانت يداها الطويلتان المحبّبتان مُلتصقتين بمِسْنَديِّ الأريكة، كأنّها مهدّدةٌ بالسقوط.

فجأةً، اخترقت أصواتُ النّقر الصمتَ، فبدت ميشكا متفاجئةً

باحثةً حولها ومنشغلةً بسوارٍ حول معصمها كأنّ الصّوت يُمكن أن يصدر عن ذلك السّوار القبيح والغريب. ثمّ انتهى بها المطاف إلى أن تُقنع نفسها بالاستمرار في لبسه.

ولم يلبث أن تعالى صوتُ «المُكلَّفة بالخدمة عن بُعد» في الغرفة:

- صباح الخير يا سيِّدة سالد، تتّصل بك موريل «المُكلَّفةُ بالخدمة عن بُعد» الّتي طلبتها عبر جهاز الإنذار؟

- نعم..

- هل سقطتِ؟

- لا، لا.

- هل تشعرين أنّك لستِ على ما يرام؟

- ليس كثيرًا.

- هل يُمكنك أن تشرحي لي أكثر؟

- أنا خائفة.

- أين أنت الآن سيّدة سالد؟

- في الصالون.

- هل أنت مُصابة؟

- لا، لكن ... بتُّ أفقد.

- هل ضيّعتِ شيئا مّا؟

لم تُجب ميشكا، بل ازدادت تشبّثًا بالأريكة. كانت تشعر بأنّ

الأريكة تهتزُّ تحتها، إنْ لم تكن الأرض هي الّتي تهتزُّ. أضافت المُكلَّفة بالخدمة عن بُعد:

- هل أنت جالسة الآن؟

- نعم، أنا على أريكتي. ولكنِّي عاجزة عن الحركة.

- ألا يُمكنك الوقوف؟

- لا.

- مُنذ متى وأنتِ على الأريكة يا سيِّدة سالد؟

- لا أدري، أعتقدُ أنّني هنا منذ الصّباح. جلستُ عليها كعادتي بعد الفطور من أجل حلِّ الكلمات المتقاطعة، ولكنّني لم أجد الكلمات. ثمّ حين حاولتُ النُهوض لم أقوَ على ذلك، فقدتُ كلّ شيء.

- ماذا فقدتِ يا سيِّدة سالد؟

- إنّه أمرٌ غير ظاهرٍ، ولكنّي أستشعره. إنَّه يُفلت ..إنَّه يُفلت.

- هل يُمكنك تحريك ساقيْكِ يا سيِّدة سالد؟

- لا، لا، لا. لا أقدر. قد انتهى الأمر. أنا خائفة.

- هل فعلا لا تقدرين على الوقوف؟

- لا.

- هل تناولتِ غداءك في مُنتصف النّهار؟

- لم أتناول الكثير.

-إذن أنتِ مُنذ الصّباح على أريكتك دون حركة؟

-نعم، هو ذاك.

-سأتّصل بأحد أقاربك الموجودين في القائمة. هل تُوافقين على الأمر؟

-نعم.

أنا مُتأكِّدة من أنّ ميشك سمعت النّقرات السَّريعة لأصابع الـمُكَلَّفة وملامستها لوحة المفاتيح. قالت المكلّفة بالخدمة:

-أمامي الآن اسم الأنسة ماري شابيي. هل أتّصلُ بها؟

-لا أدري...

-هل هي ابنتك!

-لا.

-هل تودِّين أن أتَّصل بها؟

-نعم، من فضلك. قولي لها إنّني لا أريد ال... *إزعارها*[1]، وهذا عائدٌ إلى أنّي أفقد شيئًا مّا، شيئًا مهمّا جدًّا.

حلَّتْ موسيقى «سوبر ماركت» بدل صوتِ الـمُكلَّفة بالخدمة. تصلَّبت ميشكا في مكانها وظلَّت تُحدِّق أمامها في وضعيّة الانتظار والتَّركيز الّتي أعرفها جيّدا. بعد بضع ثوانٍ عاد صوتُ الـمُكلَّفة:

-أما زلتِ هنا يا سيّدة سالد؟

-نعم.

---

(1) بدل أن تقول déranger التي تعني إزعاج، قالت démanger. تم اعتماد ازعار.

- سوف تأتي ماري على جناح السُّرعة. قالت إنّها ستكون هنا خلال 20 أو 25 دقيقة. وستقومُ بإعلام طبيبك.

- *مرافقة*..[1]

قالت «أوّلا» بالنبّرة نفسها الّتي تقول بها «حسنًا».

- *مرافقة* ماذا؟

- نعم، *مرافقة*.

- سأواصل عملي يا سيّدة سالد. أنا بالجوار، فإن شّعرتِ بأنّك لست في حالةٍ جيّدةٍ اضغطي مرّة أُخرى على الزِّر الموجودِ على السِّوار، وسأكون على الخطّ. اتّفقنا؟

- نعم، *مرافقة*. شكرا.

حافظتْ ميشكا على جلستها، يداها موضوعتان على مِسْنَدَيْ الأريكة تُحاول الاعتدال.

أغلقتْ عينيْها للحظات، فتناهى إليها صوتُ فتاةٍ صغيرةٍ:

«هل سأنام عندك؟ هل ستتركين الضوءَ مشتعلًا؟ هل تبقينَ هنا؟ هل يُمكنك تَرْكُ البابِ مفتوحًا؟ هل تظلّين إلى جانبي؟».

ابتسمت. كان صوتُ الفتاة الصغيرة ذكرى عذبة، ولكنّها مؤلمة في الوقت نفسه.

«هل يسعنا تناولُ فطور الصّباح مع بعضنا البعض؟ هل أنتِ

---

(1) بدل أن تقول D'accord التي تعني موافقة، قالت D'abord، التي تعني أوّلا. تم اعتماد مرافقة.

خائفة؟ هل تعرفين الطّريق إلى مدرستي؟ لن تُغلق، صحْ؟ هل تُرافقينني إليها بدل أمّي؟ فهي غير قادرة».

ضربتُ الجرس مدّة قصيرة. ثم أدرتُ المفتاح بسرعة في القُفل، ودخلتُ الشّقة لأجدها هناك، مُتشبِّثةً بالأريكة وكأنّ التّيّار سيجرفها الآن. دنوتُ منها وقبّلتها، فاستنشقتُ العطر العذب لمُثبِّت الشّعر. لا يزال تأثيره على الذاكرة حاضرًا بالنِّسبة إليَّ حتى الآن. خاطبتها:

- والآن يا ميشك، ما الّذي حدث؟

- لا أدري، لكنّني خائفة.

- سأساعدك على القيام، اتّفقنا؟

- لا لا لا.

- لكن يا ميشك قد زُرتك منذ ثلاثة أيّام، وكُنتِ تمشين جيِّدًا بمساعدة عُكّازك. أنا على يقين من أنّك قادرة على الوقوف.

أحطتُها بيديّ وساعدتها على الوقوف، بينما أمسكتْ بيديها مِسْنَدَيْ الأريكة لتحفِّزها على القيام. ثم وجدتْ نفسها واقفةً على ساقيها مُنبهرةً بنفسها، ترنّحت قليلا، لكنّها استعادتْ توازنها. همستُ لها:

- أترين..

- هل أخبرتك عن سقوطي في الصالون؟

- نعم يا ميشكا، قد أخبرتني.

-الخطوة الأولى[1]؟

مَدَدْتُها بالعُكّاز، ثمّ وقفتُ بجوارها من الجهة الأخرى لأسندها.

-هيا فلنسر!

-احذري ...أها...

-يبدو أنّك تتضوّرين جوعا...

توجّهنا إلى المطبخ. كانت مُتشبِّثةً بي وهي تتقدّم ببطء. شيئا فشيئا شعرتُ أنّها تستعيد ثقتها بنفسها.

-ليس الأمر بذلك السّوء...

ولكن ابتداءً من ذلك اليوم، لم تعد ميشكا قادرةً على البقاء وحيدة.

جلستْ ميشكا في حُجرة أخرى أمام مكتبٍ تكوّمت فوقه العديد من الملفّات. في الجانب الآخر لمكان جلوسها تقبع أريكة سوداء جلديّة فارغة.

بدأت تغنّي لتبعثَ الطمأنينة في نفسها:

يعود الجنديّ المسكين من الحربِ،

بكلِّ رقّةٍ.

---

(1) قالت ميشكا La première bête! الّتي تعني حرفيّا البهيمة الأولى، أو الوحش الأوّل، وهي جملة لا معنى لها في السياق، فرجّحتُ أنها أرادت أن تقول: le premier pas التي تعني الخطوة الأولى.

يعودُ الجُنديّ المسكين من الحربِ،

بكلِّ رقّةٍ.

مُعتمرًا لباسًا مبتذلًا، ومتأبطًا تجهيزاتٍ سيّئةٍ،

رِجلٌ تنتعلُ حذاءً والأخرى حافية،

بكلِّ رقّةٍ.

يذهب ليبحث عن السيِّدة المضيفة،

بكلِّ رقّة.

يذهبُ ليبحث عن السيِّدة المضيفة،

بكلِّ رِقّةٍ.

«دعونا نُحضر بعض النبيذ الأبيض هنا

فإذا ما مرّ الجُنديّ احتسى منه!»

بكلِّ رقّةٍ.

دخلتْ امرأة ذات ملامح صارمةٍ الغرفةَ حاملةً معها ملفًّا ضخمًا وضعته على الطاولة بعجرفةٍ. كانت أظافرها الطويلة مطليّةً بلونٍ داكنٍ. راقبتْ المرأة ميشكا دون أن-تُبدي أيّ بشاشة على وجهها، ثمّ جلستْ على الأريكة وأخذتْ تنظر إليها ببرود قبل أن تبدأ حديثها:

-هل تستطيعين أن تُقدِّمي نفسك يا سيِّدة سالد؟

فجأة، شعرتْ ميشكا بحرجٍ شديدٍ. ثم ردّت:

- آه طيب...أُدعى ميشال سالد، ويُنادونني ميشكا.

- جيّد، هل أنت متزوّجة؟

- لا.

- هل لديك أولاد؟

- لا.

تركت المديرةُ الصمتَ يخيِّم على الغرفة منتظرةً إجابةً دقيقةً. قالت ميشكا:

- لقد سافرتُ كثيرًا من أجل عملي، وكنت أعدُّ تقارير مصوَّرة لمجلاّتٍ. ثم تولَّيتُ وظيفةَ مدقّقةٍ في جريدةٍ، حيث كنتُ أراجع التّقارير بعنايةٍ شديدةٍ، ولم يكن يفوتني أيّ شيء: الأخطاء المطبعيّة، والنّحويّة، والصّرفيّة، والتّكرار..

قاطعتها المديرة:

- لماذا تُريدين ترك منصبك الحاليّ؟

لم تفهم ميشكا السّؤال. ولم تقدر على إخفاء نظرة الذُّعر التي تملّكتها. بحثتْ حولها عمّن يمدُّ لها يد العون، لكنّها كانت وحيدةً وجهًا لوجه أمام هذه السّيدة الّتي لا تتوقّف عن النّقر بأصابعها على الطّاولة دون صبرٍ على تثاقل ميشكا في الرَّدّ. أحدثَ احتكاك أظافر المديرة بالورق الخشبيِّ العازل صريرًا باهتًا. قالت ميشكا:

- في الحقيقة يجب أن أعترف لك بأنّني خرجتُ إلى التّقاعد منذ مدّةٍ طويلةٍ.

ضحكت المرأة بطريقةٍ غير مفهومةٍ، ثمّ تنهّدت بشكلٍ ظاهرٍ.

- سأطرحُ عليك السُّؤال بطريقةٍ أخرى يا سيّدة سالد: ما الّذي أثار انتباهك في مؤسّستنا؟

- ربّما أخطأتُ الغرفة.. أو بالأحرى المكتب..لم أكن أعرف أنّه يجب عليّ أن أمُرَّ من هنا. أقصد أنّه كان عليّ أن فعل ذلك.

لم تستطع المديرة كتْمَ سخطها. خاطبتها:

- سيّدة سالد، أنتِ بصدد إجراء مقابلة توظيفٍ للحصول على مكانٍ بدار رعاية المسنّين. (كان صوتها يزداد قسوة كلّما استطردت). وهذا الأمر منوط بمدى إبرازك أفضل ما لديك، فنحن كما ترين نستقبلُ عددًا كبيرًا من الطّلبات. هل يجب عليّ أن أذكّرك؟

- لا، لا...بالتّأكيد، أفهم. ولكنّي لم أستعدَّ كفايةً، فلم أكن أعلم أنّه يجب عليّ اجتياز مقابلة توظيف.

فقدتْ المرأة أعصابها، ردّت:

- ولكن ماذا تعتقدين يا سيّدة سالد؟ أنّنا نرحب مثلًا بأيِّ شخصٍ هنا؟ بأيّ طريقةٍ كانت؟ أنت تتوهّمين! المكان هنا، لا يسع الجميع.

عليك أن تُدركي هذا جيِّدا! لا يوجد مكان هنا! وهذا الكلام ينطبق على الجميع! مهما فعلتِ يجب عليك أن تجتازي اختباراتٍ، ومقابلاتٍ، ومسابقاتٍ، وامتحاناتٍ، استجواباتٍ؟

يجبُ عليك اظهار انتمائكِ، اشتراكِ، مُحفِّزاتكِ، تصميمكِ! في المدرسة، في العملِ، في الجامعةِ، في كلّ مكانٍ يا سيِّدة سالد. نعم، في كلّ مكان، في كلّ مكان، في كلّ مكان. يجب علينا، الفرزُ، الاختيارُ، الانتخابُ! حتّى في دور العجزة نُـميّز الغثَّ من السَّمين! هكذا يسيرُ العالم، ولستُ أنا من يُملي القواعد غير أنّني أنا الّتي أطبّقها!

بدت ميشكا مندهشةً، ثمّ همست:

- هل تُريدين منِّي أن أثبت حُسن نيَّتي؟

-بالتّأكيد، يجب أن نعرف: ما هي نقاط قوّتك، وما نقطة ضعفك الكبيرة؟ ما المجالات القابلة للتَّحسين لديك؟ ما هي هوامش التطوُّر عندك؟ وأين يكمن مُؤشِّر الكمال لديك؟

-أنت تعرفين أنّني سيِّدة مُسنّة.

-هذا هو المشكل يا سيِّدة سالد.

-في الحقيقة، أنا... لا أستطيعُ البقاء وحدي في البيت، فأنا أخاف...قد صرتُ أفقد الأشياء...وبتُّ أخشى من أن تتأزّم الأمور أكثر.

تنهّدت المرأة مرّة أخرى بشكلٍ ظاهرٍ. ثمّ قالت:

-أنتِ لا تجعلين الأمر سهلًا عليّ. هل تُجيدين الرّقص على الأقل؟

-نعم، قليلا.

-برهني لي.

قامتْ ميشكا، ثم ابتعدت عن المكتب بخطواتٍ متردّدةٍ في البداية، ثم شرعتْ في الرّقص كأنّها فتاة صغيرة. دارتْ حول نفسها رافعةً يديها فوق رأسها، وبرشاقة وقفت على أطراف أصابعها. ثم شيئًا فشيئًا، أضحى جسدها أكثر ليونة، وبدأت تدريجيًّا تشعر براحة أكبر، وتندمج أكثر في أجواء الرَّقص، وأصبحت حركاتها أكثر استرخاءً، مصحوبةً بابتسامةٍ أضاءت وجهها. وكأنّها الآن قد استعادت شبابها في حركاتها الدّقيقة والمتقنة، لقد بدأت تتألّق.

دوّنت المرأة بعض الملاحظات على الملفّ، ثمّ دون أن تنبس بكلمة قامت مغادرةً الغرفة.

ظلّت ميشكا وحيدةً في وسط دائرة الضوء، مواصلةً الرّقص لنفسها، ثمّ تجاوزت النُّور إلى الظَّلام، ولم تلبث أن توارت.

تغيّرت الأحلام التي كانت ميشكا تحكيها باستمرار. ربما لأنّ الذِّكريات أصبحت، شيئًا فشيئًا، أكثر دقّة، أو لأنّها أضافت بعض التّفاصيل التي عدّتها أكثر جذبًا للاهتمام. حتّى نتمكّن -نحن الّذين كنا نذهب ونعود كما نشاء، ونحن الذين كُنَّا في كامل قوَّتنا- من فهم الشُّعور بالرُّعب الذي كان يُسيطر عليها.

حلَّ موعدُ اللِّقاء، وجلست ميشكا في المكان نفسه الّذي رأته في الحلم. لكنِّي كنت هذه المرَّة إلى جانبها. وجهانا يقابلان المكتب في انتظار المديرة. كانت ميشكا متوتِّرة كما لو كان ذلك هو يوم امتحان شفويٍّ مهمٍّ. همستُ لها:

- لا تقلقي يا ميشك، ستسيرُ الأمور على ما يرام. الأمر لا يعدو أكثر من لقاء تعارف.

- أأنت متأكّدة من أنّها ليست مقابلة... معلومات.. أو إبداءَ حُسن نيّة .. ليتمّ قبولي.

- لا، سوفَ ترين. أنظر تجاهها وأبتسمُ. بدالي وجهها مُسترخيًا، وقد اغتنمتْ الفرصة لتُراقب قسمات وجهي بحيرةٍ مبالغٍ فيها. سألتني:

- هل صفَّفتِ شعرك؟

- نعم ميشك، لقد صفَّفتُ شعري.

دخلت امرأة المكتبَ وهي ترتدي لباسًا فاتحًا، بدت لطيفة وودودة. وضعتْ الملفَّ أمامها، ثمّ توجّهت بالكلام إلى ميشكا:

- حسبما فهمت كنتِ دائمةَ الاعتماد على نفسك إلى غاية الأسابيع الأخيرة.

أبدت ميشكا موافقتها بحذر، إذ كنتُ متوجّسة منها. أردفت المرأة:

- لكن ابتداءً من اليوم، لن يمكنك البقاء وحدك... كما ذكر طبيبك. لأنّك تعرضتِ عدّة مرّات للسقوط في الأشهر الأخيرة. وكان أحد هذه الحوادث سببًا في دخولك المستشفى لفترة قصيرة. الدُّوارُ الذي تُعانين منه يُفسِّر جزئيًّا مخاوفك وصعوبة تنقُّلك داخل المنزل.

هزّت ميشكا رأسها موافقةً، بينما انهمكت السيِّدة في تصفّح الملف.

- هل تخرجين إلى النّزهة؟

- قليلا بصحبة ماري. نخرجُ مرّة في الأسبوع. في السّابق كنتُ أقوم بدورات من المشي في شُرفة بيتي، ولكنّني الآن لم أعد أقوى على ذلك.

- دورات مَشْيٍ في الشُّرفة؟

نعم، أقطع أطوالًا طويلة مثل السُّجناء... أحيانًا عشرين ميلا عندما كنت في أفضل لياقتي. يُحتسب الطُّول بعشر خطوات، بالإضافة إلى خطوتين في العرض. فيُصبح المجموع اثنتي عشر خطوةً. أتركُ لكم... الحساب والقياس.

حدّقت المديرة في ميشكا محاولةً فهم كلامها لتُقدّر مدى سخريتها من نفسها، لكنّها لم تجد شيئًا. كانت ميشكا فخورة بنفسها: مئة وعشرون خطوةً في اليوم، وهذا ليس بالأمر الهيّن.

نظرت نحوي كأنّها تريد أن أتكلّم بدلا منها. فقلتُ:

- نُحاول دائما عند مجيئي أن نقوم بنزهةٍ في الخارج، لكنّ مخاوف ميشكا ازدادت بسبب حوادث السُّقوط، إذ أصبحت تشعرُ أنّ كلّ الأشياء الّتي حولها تتحرّك بسرعة: الأطفال، النّاس المستعجلون.

- هل فكّرتِ في البقاء بالبيت!

- نعم، بالطّبع. ولكنّ المشكلة في الحصول على شخص يبقى معي ليلا ونهارا.

لا تستطيع ميشكا البقاء وحدها على الاطلاق، لأنّها صارت تخافُ من ذلك.

تتدخّل ميشكا موضّحة:

- في اللّيل، أرى... كوابيس.

- ظننتُ أنّها تستطيع الانتقال للعيش معي، ولكنّها لا تُريد حتّى سماع ذلك.

- أه، لا! إنّ الشّقة في الطابق السّادس من دون *مدفع*[1]. ثمّ إنّه لا يوجد سبب يجعل ماري تعتني بي!

حدّقتْ المديرة فيها بتساؤل، بينما وجّهتُ نظري نحوها متمنّيةً أن تلتقي نظراتنا. انتظرتُ أن ترتفع عيناها الباهتتان إلى الأعلى وتتركّزان على وجهي. خاطبتها:

- نعم يا ميشك. بالتّأكيد هناك الكثير من الأسباب.

- لا، هذا خارج نطاق الإدارة. وكما تعلمين، فإنّ كبار السِّن يُشكّلون عبئًا ثقيلًا. وعلى أيّة حال، لن تتحسَّن الأمور. يُمكنك أن تصدِّقيني، فأنا أعرف تمامًا إلى ما ستؤول إليه.

تراقب المديرةُ كلتينا، ثمّ تخاطبني:

---

(1) بدل أن تقول ميشكا ascenseur التي تعني المصعد، قالت défenseur التي تعني مُدافع. قمنا بمقاربة الكلمة إلى مدفع لأنها على الوزن نفسه وليس لها أيّ دلالة في النّصّ.

- هل تُقيمين حاليا مع السّيدة سالد!

- ليلًا فقط، بينما وجدتُ شخصًا ينوب عنّي أثناء النهار خلال مُداومتي في العمل.

- سأتّصل بك بمجرّد أن يُصبح المكان شاغرًا. نحن على تواصل مع الطبيب المعالج الذي دعّم الطّلب. عادةً ما تتمُّ هذه الإجراءات بسرعة، ولكن في الوقت نفسه لا يُمكن تحديد موعد مُحدَّدٍ لها. الأمر يعتمدُ... على المغادرين.

عندما قامت المديرة نظرت إليّ ميشكا كأنّها تنتظر إشارةً، فساعدتها على النّهوض وعلى التقاط عُكّازها. وهكذا غادرنا الغرفة بخطواتٍ بطيئةٍ.

أوصدتْ ميشكا باب منزلها خلفها، هذا الباب الذي أغلقته مئات المرّات، ولكن اليوم، كانت تُدرك أنّها المرّة الأخيرة. تُصرُّ على تدوير المفتاح في القفل. كانت تعرف أنّها لن تعود مرّة أخرى، إذ لا تستطيع إتمام الأمور الّتي أعادتها مئات المرّات: إشعال التلفاز، كيُّ غطاء السرير، غسل المقلى، إنزال الستائر لتحجب الشمس، تعليق ردائها على مشجب الحمّام، التربيتُ على وسائد السرير لتستعيد شكلها الّذي فقدته منذ مُدّة. كانت قد أهدت أثاثها؛ سريرها، ومسجِّل الفيديو، والمقالي، ومُحمِّص الخبز. ولم تحتفظ سوى ببعض الكتب، وألبوم الصّور، ونحو ثلاثين رسالة، والأوراق الإداريّة الّتي تحظر الإدارة رميها. لكن الحقيقة التي كانت تعرفها أنّها قد قطعت كلّ الرّوابط.

استلمتْ ميشكا غرفتها الجديدة بأثاثها البسيط: سرير، ومنضدة ليليّة، وكرسيّ، ومكتب، وخزانة حائطيّة، فورميكا، وبلاستيك، وخشب فاتح، وألوان ناعمة. ألوان باستيل من النوع القياسي الجيِّد. جلستْ على الأريكة الوحيدة بينما كنتُ أنتهي من ترتيب أغراضها، وبدأتْ تُراقب الجدران النّظيفة حولها، والسّتائر المزخرفة بالزُّهور. كنتُ أرى جيدًا تعابيرَ وجهها العابسة؛ كانت في مزاج كئيب. خاطبتها:

- لا تقلقي، يُمكنك تزيينها. سنُعلِّق بعض الصُّور على الجدران، ونضع نبتةً جميلةً خضراءَ فوقَ الطاولةِ.

- ولـمَ؟

- لنَجعلَ المكان أكثر دفئًا.

- لا أستطيع الادِّعاء بأنه بيتي.

- ليس على الإطلاق يا ميشك، فهذا ليس سببًا لجعلِ الغرفة قبيحةً. وعلى كل حال ستبقين هنا فترةً قصيرةً.

- نعم، حسنًا. سنرى.

(أتجاهل إن كانت تُشير إلى البقاء في المؤسّسة أو إلى مغادرتها نهائيًا)، بدت كأنها تمرُّ بيوم سيِّء، ثم فجأةً أضاءت عيناها. وقالت:

- هل وجدتِ زجاجتي في الحقيبة؟

- أيّة زجاجة؟

- زجاجة الويسكي.

- نعم، نعم، هي هنا. لكن هل من المعقول أن تحتفظي بها، يا

ميشك، وأنتِ تُعانين من الدُّوار؟ هل أنتِ مُتأكّدة من أنَّكِ تستطيعين الاحتفاظ بها وأنت على هذه الحال؟

- آه، اسمعي، أنا أشربُ قليلًا منها في نهاية اليوم، فالكأس الصغيرة لن تضرّ. ضعيها في المخزن، اتّفقنا؟ ليس في الأعلى ولا في الأسفل، بل خلف الثِّياب من فضلك. سيكون ذلك ممتازًا جدًّا.

- هل أنت متأكِّدة بأنَّه مسموح لك بذلك؟

- لستُ متأكِّدة، وفي الحقيقة لا يهمّني الأمر، فنحن لسنا في الجيش.

أخرجتُ القنِّينة الّتي تركتها طواعيّة من محفظتي، ووضعتها في الخزانة الجداريّة وفقًا لتعليماتها.

- ليس بالأعلى، لا! هنا، إلى الأسفل بقليل، خلف *الغترات*[1] هناك..جيّد جدًّا.

تبدو سعيدة لبضع لحظات.

جلستُ على الكرسيّ بجانبها، في حين انشغلتْ هي بتصفُّح دفتر الاستقبال. كنتُ أعرف أنّها تبحث عن سبب للتّذمّر. تهمس:

- موعدُ الغداء في الثانية عشر، وفي الرّابعة عصرًا وجبة خفيفة، بينما العشاء على السّادسة والنِّصف مساءً... ما هذه الحياة المجنونة!

---

(1) بدل أن تقول ميشكا pulls التي تعني السترات، قالت bulles التي تعني الفقاعات. اخترت كلمة غترات.

ابتسمتُ، فأردفتْ:

-إنهنّ يبدين كبيرات في السِّن، أليس كذلك؟ هل ترينْهنّ؟ تلك النساء اللائي يجلسنَ على الأرائك... ذات العجلات في الصالون. هنّ من الجيل الرابع على الأقلّ.

-لا أعلمُ يا ميشك. بالتّأكيد هناك فروقات كبيرة، فالنّاس يُقيمون هنا لأسبابٍ مختلفةٍ، ومع ذلك، أنتِ لستِ الأكبر سنًا.

-آه، حسنا، (تبدو مطمئنة). هل تعرفين أنّ المكان يجعلني أشعر بالغرابة.

-أتخيّلُ هذا يا ميشك.

في الواقع، لم أستطع تخيّل أيّ شيءٍ على الإطلاق، إذ لم يكن الأمر قابلًا للتخيّل. وضعتُ ذراعي على ذراعها محاوِلة العثور على كلماتٍ، قد تمنحها بعض الراحة، مثل: «السيِّدات ودودات» أو «أنا واثقة من أنّك ستُقيمين صداقاتٍ» أو «ثمّة العديد من الأنشطة». لكنّ بدت كلّ واحدةٍ من تلك العبارات كأنّها إهانة للمرأة التي كانتها. لذلك التزمتُ الصمتَ، مُكتفيةً بالبقاء بجانبها، بينما تمدّدتْ هي على السّرير، ثمّ استسلمت للنوم.

بعد دقائق، دخلتْ امرأة غرفتها وعرضتْ عليها وجبةً خفيفةً، هي كوبٌ صغيرٌ من عصير التّفاح مع شفاطةٍ، وقطعةُ حلوى مغلفةٌ بكيسٍ صغيرٍ. تمامًا كما يُقدَّم لرُوّاد مراكزِ التّسليةِ.

هذا ما ينتظركِ يا ميشك: خُطواتٌ محسوبةٌ، وحصصٌ ضئيلةٌ، ووجباتٌ قليلةٌ، وخرجاتٌ محدودةٌ، وزياراتٌ متباعدةٌ. حياةٌ ضيِّقةٌ، لكنّها منظمةٌ بإحكامٍ.

أحاولُ دائمًا الاتِّصال بها عبر الهاتف، لكنّ الأمر يزداد صعوبةً. لا تسمعُ جيدًا، وتشردُ بسرعة، فتَتَقلّص المحادثات وتتحوَّل إلى روتينٍ فارغٍ رغمًا عنّي. فجأةً، يبدو صوتها بعيدًا، أقاومُ، أحاولُ، لكنّي أفشلُ. وفي النِّهاية، أجدُ نفسي أخاطبها مخاطبة طفلٍ، وهذا ما يُمزِّق قلبي، لأنّني أعرف تمامًا أيّ امرأة كانتْ. أعرف أنّها قرأت دُوريس ليسينغ، وسيلفيا بلاث، وفيرجينيا وولف، وأنّها حرصتْ على تجديد اشتراكها في جريدة *لوموند*، وظلّت تُتابع الصُّحف يوميًّا، رغم أنّها لم تعد تقرأ سوى العناوين الرّئيسيّة.

ومع ذلك، أسألها: هل نمتِ جيّدًا؟ هل تناولتِ طعامكِ كما ينبغي؟ هل تسير الأمور على ما يُرام؟ هل تمكّنتِ من القراءة قليلًا؟ هل شاهدتِ التّلفاز؟ هل كوّنتِ صداقات جديدة؟ هل بقيتِ في غرفتكِ طوال الوقت؟ ألم تذهبي بعد إلى نادي السّينما؟

وبدلًا من أن تقول: «اتركيني بسلام، اشربي نخبَ صحّتي، أو ارقصي فوق الطاولات»، تُجيب بلطف عن أسئلتي. إنّها تبذل قصارى جهدها كي تبحث عن الكلمات بعناية.

وحين أُنهي المكالمة، يجتاحني شعور بالعجز، فأجدُ نفسي في صراع مع ذاتي، وأبقى بلا صوت.

جيروم

طرقتُ الباب عدّة مرّات، لكنّها لم تسمعني.

كانت وحدها في الغرفة، مُنشغلة بالبحث عن شيء مّا. فتحتُ خزانة الحائط مرارًا، ثمّ سحبتُ أدراج مكتبها، ورفعت المجلّات المكدّسة على المنضدة اللّيليّة. بدت حائرةً، تُعيد الحركات نفسها مع: خزانة الحائط، والأدراج، والمنضدة اللّيليّة. وكأنّها عالقة في دائرة مغلقة. ثم استدارت تمسح الغرفة بنظراتها، تبحث عن مكان آخرَ تُفتّش فيه.

فجأةً، وضعت عُكّازها على السّرير، ثم استندت إليه محاولةً الاستواء على ركبتيها. أرادت أن تنظر تحت السّرير، لكنّ الوضعيّة المؤلمة أجبرتها على الاستلقاء على بطنها، بينما تدلّى رأسها تحته ببطء.

هكذا التقيتُ بها أوّل مرّة. نظرتُ إليها للحظة، ثمّ بادرتها قائلًا:

- صباح الخير سيّدة سالد، أنا جيروم أخصّائيّ النّطق.

كادت تصطدم بالحافّة، فدنوتُ منها كي أساعدها على النهوض قائلًا:

- سأساعدكِ.

لم يكن الأمر سهلًا، نظرًا إلى الوضعيّة التي وجدتها عليها؛ فقد كان نصف جسدها تحت السرير، بينما بقي النِّصفُ الآخر خارجه. أضفتُ:

-ابقيْ مُستلقية يا سيِّدة سالد، نعم... هكذا، جيّد. سأسمح لنفسي بسحبك نحوي قليلًا لتتمكّني من النّهوض. لا تتحرّكي... انتبهي... سأسحبكِ قليلا... هوووب... ها أنتِ هنا... انتبهي، لا ترفعي رأسك... سأسحبكِ أكثر قليلًا... ها قد انتهينا.

وهي مستلقية، استدارتْ بصعوبة على جانبها نحوي، وألقت عليّ نظرةً متفحّصةً، ثمّ قالت:

-آه، صباح الخير.

شدّت على يديّ كأنّ كلّ هذا الأمر كان طبيعيًّا: مُمدّدةً على الأرض، عاجزةً عن النهوض بمفردها، بينما كنت جالسًا القرفصاء إلى جانبها. في عُشر ثانية، تفحّصتني بنظرة سريعة، وإحدى عينيها ترتعش. قمتُ بمساعدتها على الاعتدال، ثمّ القيام، وقد استغرق الأمر بعض الوقت توخّى كلانا الحذر أثناء حركته.

أشارت إليّ كي أمدَّها بالعُكَّاز فاستجبتُ. ثم افترّت شفتاها عن ابتسامة صغيرة، كابتسامة من يحمل شعورا بالذَّنب. وقالت:

-نادني ميشكا...

-يسرُّني هذا.

-«السيِّدة سالد» هنا، «السيِّدة سالد» هناك، أنت تعلم أنه

من المحزن أن تعيش بين أشخاص لا يُنادونك إلاّ باسمك الأوّل.

فاجأتني بحيويّتها. فقلتُ:

-أنا أتفهّم الأمر ومن الآن سأُناديك بميشكا. أعدك بذلك. هل كُنت تتحدّثين عن شيء؟

-نعم، لأنّني....أفقدُ الكثير....وبُسرعة. أشعرُ طوال الوقت بأنّني أفقد شيئًا ولا أجده، و... هذا ما يُخيفني. أودُّ إخبارك بالمزيد ولكن...هناك شيء يمنعني، هل تفهم؟

-قرأتُ في ملفِّكِ أنّكِ تعانين من بداية حُبسة كلاميّة. ولا بدّ أنّ الطّبيب قد شرح لكِ طبيعة هذه الحالة. وهذا يعني أنكِ تُواجهين صعوبة في إيجاد الكلمات، وأحيانًا لا تأتيك على الإطلاق، ومرّاتٍ قد تستبدلينها بأخرى، يعود ذلك إلى اختلاف الظّروف الّتي تمرِّين بها، مثل المشاعر القويّة أو حالات التّعب.

-حقًّا!..تبقى هذه وجهة نظرك.

-ربما كانت تلك هي الكلمات الّتي كُنت تبحثين عنها يا ميشكا؟

-نعم، ربّما.

-أنا أخصّائي نُطق، هل تعرفين ماذا يعني ذلك؟

-نعم بالطبع، كنت مُدقِّقةً لغويّةً في .....*مدلة*[1] كبرى منذ سنوات.

-رائع! سنتمكّن إذن من العمل معًا بسلاسة. سترين، سنُجرِّب تمارينَ وألغازًا وأشياء من هذا القبيل.

تُراقبني بلا خجل، تتفحَّصني من رأسي إلى أخمص قدميّ، ثمّ تعود بنظرها إلى وجهي، كأنّها تُقرِّر ما إذا كانت ستقبلني أم سترفضني ضمن جدول أعمالها. وأخيرًا، ختمت الحديث بالنَّبرة نفسها الّتي تستخدمها عادةً لقول: «حسنًا».

-*مرافقة*.

-لم أستطع كبت ضحكتي، فشاركتني الضَّحك ثوانيَ قليلة. ضحكنا لحظتها من أجل مُتعة الضّحك فقط.

ثم توقّفنا. قالت:

-أين يحدث ذلك؟

-ماذا تقصدين؟

-الألعاب؟

-سنقوم بها في غُرفتك، يا سيِّدة.....ميشكا..سأعمل على زيارتك مرّةً أو مرَّتين في الأسبوع، يوميْ الثلاثاء والخميس.

-آه، نعم، في غُرفتي، هذا جيّد جدًا.

---

(1) بدل أن تقول magasine التي تعني مجلة، قالت magasin التي تعني متجر. اخترنا كلمة *مدلة*.

شردتْ بضع ثوانٍ، ثم أردفتْ:

- هل أخبرتك أنّني أرى كوابيسَ؟

- لا لم تخبريني.

- هل يُمكن أن أرويها لك عندما تأتي المرَّة القادمة؟

- نعم، بكلّ سرور. إذن سأراك غدًا فهو يوم ثلاثاء.

- نعم هذا جيِّد.

عندما ألتقيهم المرَّة الأولى كنت أبحثُ عن الصُّورة التي كانوا عليها في الماضي، خلف نظراتهم الحائرة، وحركاتهم المضطربة، وأجسادهم المنحنيّة المنطوية على نفسها. كنتُ كمن يُحاول تكهّن رسمٍ أصليٍّ تحت آخرَ مُزيّفٍ رُسم بحبرٍ رديءٍ، باحثًا عن الشاب أو الشابَّة الّتي كانوا عليها. أراقبهم وأقول لنفسي: هي كذلك، أو هو كذلك قد أحبَّ، صرخَ، استمتعَ، غاصَ، ركضَ حتى تلاحقت أنفاسه، صعدَ السَّلالم أربع درجات بخطوةٍ واحدةٍ، رقصَ طوال الليل. هي كذلك، أو هو كذلك، قد استقلَّ القطار، الميترو، وتجوّل في الرّيف، والجبال، واحتسى النبيذ، ونام إلى الضُّحى، وتجاذبَ مع غيره أطراف الحديث دون توقّف. يُثير هذا الأمر مشاعري، وبمجرِّد التفكير فيه لا أستطيع منع نفسي من ملاحظة هذه الصورة ومحاولة إعادة بثِّ الحياة فيها.

أحبُّ رؤية صُورهم وهم يحدِّقون في العدسة دون أدنى فكرة عن الأضرار الّتي سيُواجهونها، عندما كانت هذه الفكرة مجرَّد نظريّة، وعندما كانوا واقفين بشكلٍ مستقيمٍ ولم يحتاجوا إلى أيِّ

دعم. أحبُّ أن أراهم في ريعان شبابهم. ولكن في أيِّ عمر يكون الإنسان فيه في أوج قوّته؟ في العشرين؟ في الثّلاثين؟ في الأربعين؟

أحيانًا، يكون من المستحيل الرّبط بين الشّاب أو الشّابة في الصورة، وبين الشّخص الجالس أمامي، حتّى مع أكبر قدرٍ من حدّة البصر والفطنة، لا، لا يبدو أنّ هناك شيئًا يربط بين هذين الجسدين؛ ذلك الجسد الرَّشيق المزهوّ بشبابه، وهذا الجسد المنهك الضعيف في دار المسنين.

أتأمَّل الصُّور وأقول: «يمكن التعرُّف عليكم تمامًا يا سيِّدة إيرمنت!» أو «لقد كُنت رجلًا وسيمًا يا سيِّد ترديان!». في البداية كان الصوت يتعالى في رأسي: «ولكن ماذا حدث؟ كيف يُعقل هذا؟ هل هذا حقًا مصير الجميع دون استثناء؟» أيُعقلُ ألّا يكون هناك طريقٌ آخرَ، أو مخرج أو مسار بديل يسمح لنا بالهروب من الكارثة؟

في البداية كُنتُ أعمل مع فئاتٍ مختلفةٍ؛ الأطفال، البالغين، وكبار السِّن. ولكن شيئًا فشيئًا ركّزتُ معظم أيامي في دور المسنين.

لا أستطيع أن أقول إنّه كان قرارًا أو خيارًا. حدث الأمر هكذا وببساطة، جاءت الفرصة فاغتنمتها. والآن أقومُ بتوزيع وقتي بين عدَّة مؤسَّسات، كما أنه لديَّ عملي الخاصّ.

أشعرُ بحالة جيّدة، فهذا هو المكان الذي يجب أن أكون فيه، أحبُّ مراقبتهم وهم يكافحون، خطوة بخطوة.

أحبُّ أصواتهم المتردِّدة، المرتجفة والمتحيِّرة.

صحيح أنّني أعمل على تسجيلهم. ولكن ليسوا كلّهم، بل البعض فقط، بواسطة جهاز رقميٍّ صغيرٍ صار يحتوي الآن عشرات الملفّات المصنَّفة في مُجلّدات.

أقوم بتسجيلهم لأغراض دراسيّة، ولتحسين منهجيّتي وممارستي، ولكن ليس لهذا السبب فقط.

أنا أعشقُ ارتجاف أصواتهم، هذه الهشاشة وهذه الرِّقة، أعشقُ كلماتهم المُحوَّرة، التقريبيّة، الضائعة، وأعشق صمتهم. كما أنّني أعمدُ إلى الاحتفاظ بكلّ شيءٍ حتّى عندما يموتون.

قد سجَّلتُ أيضا السيِّدة سالد. شرعتُ في التسجيل ابتداءً من الجلسة الخامسة أو السَّادسة، واحتفظت بكلّ شيء.

بمجرّد دخولي الغرفة، لاحظتُ ملامحها المُتعبة، فأدركتُ فورًا أنّ مزاجها لا يسمحُ بالتّعاون معي. ومع ذلك فقد قامت معتدلةً، وبدأت تُسرِّح شعرها بحركة سريعة. بذلتْ جهدًا في الابتسام لي. ذلك الدَّلال الذي تقوم به السيِّدات المسنَّات، والذي لطالما أثر فيّ.

أُخرج الأدوات وأضعها على مكتبها: قلم، ودفتر، وكتاب صور.

- كيف حالك يا ميشكا؟

- لا بأس...

- ألا يبدو هذا التّعبير «لا بأس» قليلًا على حالتك.. أم إنّني مُخطئ؟

- أجد صعوبة في [1] *التّأقلد...التّأقلج.*

- في التّأقلم؟

- نعم، ذلك هو.

- هذا طبيعيّ، سيستغرقُ الأمر بضعة أسابيع لتعتادي على ذلك، فأنتِ لم تمكثي هنا طويلًا. اليوم، أحضرتُ بعض الموادّ لنتمكّن من العمل معًا، هل توافقين؟

تُحدِّق بي بتحفُّظ، ثمّ تقول:

- ما هذا؟

- هذه تمارين صُمِّمت خصِّيصا لكبار السّنّ.

- لماذا تقول «كبار السّنّ»؟ يجب أن تقول «العجائز»؟ إنّ كلمة العجائز أفضل، فهي تحمل في طيّاتها الفخر. ألستَ تقول «الشّباب» بدلا من «الأشخاص الشّباب»؟

- أنت محقّ. من الواضح أنّك تهتمّين بالكلمات يا ميشكا، وهذا يُسعدني. هل ترغبين في القيام بتمرين صغير؟

- بدلا من هذا، هل لديك سيجارة صغيرة؟

- هل تُدخِّنين؟

- لا، لا، أبدًا، لقد أقلعتُ عن التّدخين منذ....وقتٍ طويلٍ، ولكن بصراحة مع هذه الظروف المُعقَّدة، لن تكون سيجارة صغيرة بالأمر السَّيّئ.

---

(1) بدل أن تقول adapter التي تعني التأقلم، قالت adopter التي تعني التبنّي، ثم قالت appâter التي تعني يزود او يغري. اعتمدنا كلمتي: التأقلد/ التأقلج.

- التَّدخين محظور في جميع أنحاء المؤسَّسة يا سيِّدة سالد، ثمّ إنّه لن يكون أمرًا منطقيًّا فعل ذلك. وعلى أيِّ حال أنا لا أُدخِّن.

بدت وكأنّها تشعر بخيبة أمل.

لُذتُ بالصّمت بينما ظلّت تُراقبني، وكأنَّ الصمت لا يُزعجها. راحت تُراقب أدقَّ التفاصيل في مظهري: ساعتي، حذائي، تسريحة شعري.

خاطبتها:

- حسنًا، لنبدأ يا ميشكا. سأطرح عليكِ سؤالًا، ثمّ سأعرض عليكِ أربع صور. وكلُّ ما عليكِ فعله هو اختيار الإجابة الصحيحة من بينها. ستُحاولين تسمية الشيء بالكلمة المناسبة.

كانت تُصغي إليّ باهتمام، وتُتابع حديثي ببعض الإيماءات. أردفتُ:

- السّؤال الأوّل: ما هي الأداة المستخدمة لتمليط الجُدران بالإسمنت؟

وضعتُ أمامها أربع صور: مالج، ومجرفة، ومقراض، ومسحاة. فراحت تُراقبها بارتباك واضح. قلت:

- الفكرة ليست مُمتعة.

- أتَّفق معك، فهذا المثال ليس الأكثر إثارةً.

- أُفضِّل أن نتحدَّث.

- حسنًا، لنتحدَّث قليلًا، ثمّ نقوم ببعض التمارين.

- ثمّة سيِّدة تأتي إلى غرفتي.

- هنا؟

- نعم، لقد جاءت مرّات عدّة في المساء. تدخلُ دون إذن، وتقول إنّها تبحث عن صبيّ صغير. إنّها تخيفني.

- هل هي من المُقيمين؟

- نعم، لكن... حدث شيء أمس. جاءت بعد العشاء، كالعادة في الساعة نفسها، وسألتني مجدّدًا عن الصَّبي الصَّغير. هذه المرَّة، قلتُ لها بحزم شديد حتّى تفهم: «لا أعرف، يا سيِّدتي أين هو صبيّك، لكنّ وجودك هنا يُخيفني».

شغّلتُ التّلفاز، رغم أنّني لا أُشاهده كثيرًا، أفعل ذلك فقط من أجل ذلك المذيع الّذي يُعجبني، صاحب الأسنان الناصعة، الأنيق جدًّا. هل تعرفه؟ ذلك الذي يُقدِّم الأخبار. حسنًا، تخيّل أنّه ما إن سمعتْ المرأة صوته حتّى تجمَّدت في مكانها وكأنَّها مُحاصرة! ثمّ فجأة، بدأت تصرخ وتوبِّخني!

«لكن الصَّبيّ الصّغير كان هناك!» قالتها وكأنّني خطفتُ صبيّها من خلال التّلفاز!

يُمكنك أن تتخيَّلني وأنا أطفئ التّلفاز بجهاز... جهاز التّحكّم عن بعد... *تاك تاك*. فقط لكي ترحل. وقد نجح الأمر... والآن، لا أجرؤ على تشغيله مجدّدًا، أخشى أن تعود. هل تفهمني؟

- يجب أن تُخبري عاملات الرّعاية، فهنّ سيقمن بزيارتها، ربّما فقدت عقلها. كما سيحرصنَ على ألّا تدخل غرفتك دون إذن.

صمتت لحظةً قصيرةً، ثم رمقتني بنظرة ثابتة:

- لن يتحسَّن الأمر، أليس كذلك؟

- ماذا تقصدين؟

- كلّ تلك الكلمات التي تختفي، وتهربُ هكذا بسرعة، تُوحي بأنَّ وضعي لن يتحسّن؟

- إذا كُنتِ موافقة يا ميشكا، سنتعاون معًا لتحسين الوضع.

- لكن...في الحقيقة؟

تردّدتُ قليلًا قبل أن أُجيب:

- يُمكننا إبطاء الأمر، لكن لا سبيل لإيقافه.

في غرفة دار المسنّين، كانت ميشكا متجمّدةً وسط الغرفة، مُتّخذةً وضعيّةً غريبةً، وكأنَّ أحدهم أوقفها في منتصف حركتها. كما أنّ الأثاث أُزيح من مكانه كاشفًا عن الجدار الخلفيّ.

اخترق الصمتَ صوتُ فتاةٍ صغيرةٍ:

- واحد..

في تلك اللّحظة دبّت الحركة في جسد ميشكا، فخطتْ نحو الحائط العاري.

- اثنين، ثلاثة، شمس! (لعبة)

توقَّفت ميشكا فجأةً، في وضعيّة تخشى أن يختلّ توازنها. ثم عاد صوت الفتاة الصغيرة:

- واحد...

تقدَّمت من جديد بخطوات.

- ...اثنان...ثلاثة...شمس!

توقَّفت ميشكا فجأةً. هذه المرَّة، كانت في وضعيّة غير مستقرَّة، تتمايل دون أن تتمكَّن من الحفاظ على توازنها. في تلك اللّحظة، اخترق الصّمتَ صوتُ الطفلة مبتهجًا.

- تحرّكي! تحرّكي! أنت تعودين إلى نقطة البداية!

عادت ميشكا إلى نُقطة البداية، تجرُّ قدميها بثقل، ثم اتَّكأت على الحائط بجانبها الآخر. لكنَّ صوت الطفلة لم يترك لها فرصةً للرَّاحة.

- انتباه! واحد...اثنان...ثلاثة...شمس!

لم تتقدَّم ميشكا هذه المرَّة، بل قالت:

- أين عُكَّازي؟ لا أدري إن كنتِ بحاجة إليه بعد الآن، أتفهمني؟ أشعر أنَّني بخير، انظر... الكلمات تأتي بسهولة، كما كانت دائمًا، ومن دون أن أبحث عنها أو أختارها بعناية. إنَّها تنسابُ بسلاسة، بلا جهد، بلا تصنّع، ودون الحاجة إلى استرضائها، أو إلى التقاطها، مداعبتها... اسمعني جيّدًا، إنَّ الكلمات تأتي وتذهب بُحرِّية تامَّة، وهذا رائع جدًّا. كأنَّني في حلم، وأعلمُ أنّه ليس كابوسًا هذه المرَّة.

انظرْ جيّدًا، تأمّل الألوان، أشكال الأشياء... ستشعر فورًا أنّه ليس كابوسًا. يجب أن أُخبرك بهذا. نعم، أُريد أن أُخبرك أنّني حلمتُ بأنَّ الكلمات كانت كلّها هنا، كلّها، ولم أكن بحاجة إلى

بطاقاتك، ولا صورك، ولا قوائمك. كلّ شيء كان بسيطًا كما كان من قبل، كما كان مُفعمًا بالفرح والنُّعومة، أتفهمني؟ لكن في الوقت ذاته يُرهقني هذا البحث، البحث الدائم، طوال الوقت. إنّه مُتعبٌ، مُستنزِفٌ، مرهقٌ. لست بحاجة إلى شيء آخر، وأنت تعلم ذلك. فقد أحضرتْ لي السيِّدة دانفيل الشُّوكولا. منذ زمن طويل كانت تلك السَّيدة تشتغل حارسةً للمبنى عندما كانت ماري صغيرةً. هل تحدَّثنا عن هذا الأمر من قبل؟ فقد كانت لطيفةً جدًّا، مثلما كانت الشُّوكولا لذيذةً جدًّا.

أترى؟ لا أحتاج إلى شيء آخر. لو عادت الكلمات، سيكون كلّ شيء على ما يُرام، ولن أهتمَّ بأيِّ شيء آخرَ... وتلك المرأة التي تخرج بسيّارتها تقريبًا كلّ يوم. ماذا تظنُّ نفسها؟ دائمًا ما تستعرض سيَّارتها أمامنا، كلّ يوم. نعم، إنّها من المقيمين هنا، ولكنّها تقوم بجولة صغيرة في المدينة، هكذا، كلَّ يوم تقريبًا، بوشاحها الصغير فوق رأسها... ربما تحسب نفسها غريس كيلي[1]؟

كلّ يوم تقريبًا تخرج! ولكن إذا كانت مُستقلّةً إلى هذه الدرجة، فلماذا لا تعيش بمفردها؟ نعم، إنها تُثير غضبي، أقول لك ذلك. لكنَّه لم يعد يهمُّني شيء. فالكلمات قد عادت، ولم أعد بحاجةٍ إلى التّمارين. ومع ذلك، يُمكنك الاستمرار في زيارتي لمناقشتي من وقت إلى آخر.

---

(1) ممثّلة أمريكيّة (1929-1982)، فازت بجائزة أوسكار العام 1955 عن فيلم «أمسك الحرامي»، واعتزلت الفنّ العام 1956 بعد أن تزوّجت من أمير موناكو ريني الثالث. (إضافة من المترجم).

سيكون مؤسفًا ألّا تأتي، لأنّك وسيم جدًّا، وأنا في العادة لا أحبُّ أن يرتدي الرّجال الأقراط، لكن، بالنِّسبة إليك، الأمر مختلف، خاصَّة مع ذلك الحجر الأسود الصغير... إنّه جميل على أيِّ حال.

عاد صوت الطِّفلة الصغيرة مجدّدًا.

- واحد...اثنين...ثلاث...شمس!

اندفعت ميشكا نحو الجانب الآخر من الغرفة، قفزتْ ولامست الحائط مبتسمةً، ثم قالت:

- بالتأكيد، هذه المرَّة هو مجرّد حلم! سأُخبرك به غدًا، أنا واثقة من أنّه سينال إعجابك، فهو حلمٌ مميَّزٌ.

أطرقُ الباب قبل أن أدخل الغرفة، أجدها مُستلقيةً على سريرها على غير العادة. لطالما كرهتْ أن يراها أحد وهي تغفو. تنتفض فورًا، وعيناها تجولان بحثًا عن الكتاب الذي تركته بجانبها. أخاطبها:

- صباح الخير يا ميشكا، كيف حالك؟

- بخير...

- هل أنت مُتعبة؟

- قليلا.

- هل جاءت ماري لزيارتك؟

- نعم، جاءت بالأمس، هل تعرفها؟

- تتحدَّثين عنها كثيرا، لكنَّني لم أرها بعد، هي عادةً ما تأتي في عطلة نهاية الأسبوع، وأنا هنا فقط خلال الأسبوع.

- آه، نعم، صحيح، نعم، نعم.

- سأُخْليكِ بنفسك دقائق قليلة، أقوم فيها بترتيب الأدوات على مكتبك.

- أوه، هل أنت متأكّد؟

- نعم، متأكّد..ألا ترغبين في النهوض؟

- بلى، بلى..لكنَّك تعلم أنَّ تلك التمارين ترهقني.

أمدَّ لها يدي وأساعدها على النهوض من السَّرير، ثم أُقدِّم لها ذراعي لتتّكِئ عليها في طريقها إلى الكرسيّ. تتحرَّك ببطء، يجعلني ذلك أشكُّ أنّها تتعمَّد إطالة المسافة، وكأنَّها تُحاول تأجيل بدء التَّمارين قدرَ الإمكان. أسألها:

- إذن هل تمكَّنتِ من مُشاهدة التلفاز يا ميشكا؟

- ليس طويلًا.

- لماذا؟

- لم يعد هناك جدوى على أيِّ حال، فهم يتحدَّثون بسرعة كبيرة، حتّى الصور تتلاشى بسرعة. كنتُ معجبةً بذلك الشاب الذي يغيب فجأةً، دون تخطيط، إلى أيِّ وجهة، حاملًا حقيبة نومه على ظهره. هل تعرف ذلك الشَّاب الذي ينام عند الغرباء في كلّ زاوية؟ إنّه طريف للغاية. يلتقي عمّال المصانع بالصُّدفة ويبيت عندهم بحقيبته. كنت أحبّه، لكنِّني لم أعد أراه هذه الأيّام. وأنت، هل لا تزال تشاهد التلفاز؟

- ليس كثيرا يا ميشكا، هناك بعض البرامج التي أستمتع بها، ولكنَّ وقتي ضيِّق، فلديَّ الكثير من المرضى هذا العام، كما أنّني استأنفتُ الدراسة.

تبدو مهتمَّة جدًّا، تُردف:

- حقًّا، ولكن ماذا تدرس؟

- إنّه دبلومٌ جامعيٌّ أسعى من خلاله إلى تطوير مهاراتي بشكل أكبر.

- في أيّ مجال؟

- «في إعادة التأهيل ضمن علم النفس العصبيِّ.»

- آه...هذا المجال مُعقّد.

- لكنّه لا يُجدي نفعا.

- بلى، بلى ستسير الأمور على ما يُرام.

- لا، لم أقصدك أنت، بل قصدتُ ا .. اسس ...استعادة الكلمات.

- بلى، سترين يا ميشكا، يُمكننا تحسين الكثير من الأمور. في الواقع، هذا توقيتٌ مثاليٌّ، فقد أعددتُ تمرينًا صغيرًا عن السَّفر. هل تودِّين تجربته؟

ارتسمَ على وجهها تعبيرٌ يُشبه حالة كلب مهزوم، وبدلًا من الجلوس على الكرسيِّ تمدَّدت على الأريكة بذراعين ممدودتين، ثمّ خاطبتني.

- هل يمكنك أن تُناولني عُكَّازي؟ لا أحد يعلم، قد أحتاج إلى *الهروم*[1] إذا لزم الأمر.

- الهروب، لماذا تُريدين الهروب؟

- في حالة ما إذا انطلقت صفارة *الإنذام*[2]. قد حدث هذا مُؤخَّرًا. ألم تكن هنا؟ انطلقت بعد الغداء حين كان الجميع في الطابق السفلي، باستثناء *المقاومين*[3] في الطابق الرابع. كنا نحن *المقاومين* قد انتهينا من تناول كعكة الفانيليا الصَّغيرة، وفجأةً علت صفَّارة *الإنذام*..كان صوتها مدوّيًا!

- صفّارة الإنذار؟

- هذا هو! لقد أرعبتني تمامًا! لهذا السَّبب أُفضِّل دائمًا أن يكون عُكَّازي بالقرب منّي، تحسُّبًا لأيِّ طارئ. وأنت؟

حاولتُ تتبُّع تسلسل أفكارها، لكنّها أوضحت بنفسها:

- كم عمرك؟

- خمسة وثلاثون عاما.

- أه، هذا جيِّد.

---

(1) بدل أن تقول filer التي تعني الانسحاب والمراد بها هنا الهروب، قالت fouler التي تعني يدوس ..اعتمدت الهروم.

(2) بدل أن تقول alarme التي تعني الإنذار، قالت larmes التي تعني الدموع، اعتمدت الإنذام.

(3) بدل أن تقول residents التي تعني المقيمين قالت resistant التي تعني المقاومين. اعتمدت المقاومين.

للحظات، بدت وكأنّها تستوعب هذه المعلومة، وخطر لي أنّها ربما كانت تُعِدُّ قائمةً بالأشياء الّتي كان يُمكن فعلها في الخامسة والثلاثين. لكنّها أصبحت الآن مستحيلةً بالنسبة إليها. قالت:

- أَوَ تُحبُّ كبار السّنّ؟

- حسنًا، قصدتُ ...نعم، أحبُّ العمل مع العجائز، لأنّني أجدُ الأمر ...ممتعًا للغاية.

- آه حقًا. هذا *غليب*[1]... بصراحة، مقابل ما تبقّى لنا لنقوله.

- حسنًا، أُحاول مساعدتك على قول كلّ ما في جُعبتك، وغالبًا ما يكون ذلك ممتعًا للغاية.

- أوه، نعم، هكذا، هذا جيِّد...وهل والداك كبار في السِّن؟

- تُوفيتْ والدتي قبل سنوات، قبل حتّى أن تُصبح كبيرةً في السِّنّ.

- آه، هذا جيِّد إذن.

- نعم، قد تكوني مُحقَّةً... لا شكَّ أنّ لرحيلها المبكِّر بعض المزايا، لكن في الوقت نفسه، لا يخلو الأمر من عُيوب. فقد كُنتُ أتمنَّى لو أُتيحت لي فرصة قضاء وقت أطول معها.

- لم تُخبرها بكلّ شيء إذن.

كنتُ قد لاحظتُ حِدَّة الانتباه تلك لدى كبار السِّن، وطريقتهم الخاصَّة في مُلامسة موضع الجرح مباشرةً. أجبتها:

---

(1) بدل أن تقول etrange التي تعني غريب، قالت étanche، تم اعتماد غليب.

- لا يا ميشكا، لم أُحدِّثها بكلّ ما في جُعبتي، وددتُ لو أنّني بُحتُ لها بكلّ شيء، غير أنّني لم أفعل ذلك.

- أه.....إنّه لأمر يثير ***الانحطاط***[1].....الإحباط..

- نعم، حسنًا. والآن هل نبدأ بهذا التَّمرين الصَّغير؟

- *مرافقة.*

- هل تذكرين التَّمرين الّذي قُمنا به المرَّة الماضية؟

- نعم.

- يعتمدُ هذا التَّمرين على المبدإ نفسه، لكن هذه المرَّة، سأُعطيك عدَّة كلمات، وعليك العثور على الكلمة التي تربط بينها. على سبيل المثال: البوذيَّة، البروتستانتيَّة، الكاثوليكيَّة... ما الكلمة التي تجمع بينها؟

- ووالدك؟

كنت أتمنّى لو كان لدي بطاقة «جوكر» أستطيع التلويح بها متى شئتُ، أو التَّظاهر بعدم الفهم، ولكنَّ ميشكا لم تكن من النَّوع الذي ينطلي عليه الكلام. أجبتها:

- لم أعد أراه.

- حقًّا؟ لماذا؟

- سوف يستغرق الشَّرح وقتًا طويلًا.

---

(1) بدل أن تقول embêtant التي تعني محبط، قالت entêtant التي تعني عنيد. تمّ اعتماد الانحطاط.

- وأنا أملك الوقت الكافي.

- نعم، ولكن لدينا عمل يا ميشكا.

- هل والدك على قيد الحياة؟

- نعم.

- هل هو طاعن في السِّنّ؟

- نعم، بالتّأكيد.

- لم تلتق به منذ أن تقدّم به العمر؟

- لا.

- آه، هذا إذن هو السَّبب.

- سبب ماذا؟

- هذا هو تفسير حُبِّك لكبار السِّنّ.

- لم أُفكِّر في الأمر على هذا النَّحو، لكن ربّما...

- على كلّ حال ينبغي أن تُخبره.

- أُخبره بماذا؟

- بكلِّ شيء، بكلِّ الكلمات التي نرفض قولها، ثمّ نندمُ على الصمت ما إن يرحل[1] النّاس فجأةً، ....لعلَّك تفهم قصدي؟ أنت تعلم أنّ هذا يحدثُ دائمًا، ولا يُمكننا الاستمرار في العيش وقلوبنا مُثقلة بكلِّ هذا الكلام، إذ

(1) نطقت ميشكا كلمة fuir التي تعني هنا يرحل، على هذا النحو pfffuit... ...اعتمدت الكتابة بالأعلى.

لا تلبثُ أن تستيقظ فينا.. *الكواليس*[1] ...الكوابيس، هل فهمتني؟

- نعم، نعم، أفهم ذلك جيّدًا، سنرى حسنًا؟ والآن دعينا نبدأ من جديد، إليك أربع كلمات جديدة:

- مرّ، حامض، مالح، حلو...

- الذَّوق؟

- جيّد جدًا، إليك مثالًا آخرَ.

- ورغم ذلك أليس الأمر مُحزنًا؟

- ماذا تعنين؟

- لم يتبقَّ من حلوى الفواكه الخاصّة بالسَّيدة دانفيل ولو قطعة واحدة.

- كنتُ أعتقدُ أنّك تُحبِّذين الشُّوكولا؟

- نعم، إنّها تأتي في المرتبة الثّانية. أمّا في المرتبة الأولى فحلوى الفواكه. أخبرني، هل جرحك والدك؟

لم أستطع منع نفسي من التنهُّد، أجبتها:

- نعم، يا ميشكا.

- آه، إن الموقف *صعد*[2] ...صعب.

---

(1) بدل قول cauchemars التي تعني كوابيس قالت cocarde التي تعني شارة. تم اعتماد كواليس.

(2) بدل أن تقول difficile التي تعني صعب، قالت diffus التي تعني منتشر، تمّ اعتماد صعد.

لم أدر إن كانت تعني التَّمرين الذي سأجعلها تقوم به، أم موقفي. كانت تُراقبني وكأنّها تنتظر منّي أن أكشف لها القصَّة كاملةً على الفور. أضافت:

- يجبُ أن تذهب لزيارته.

-زيارة من؟

-كيف حال والدك؟

-إنّه بخير على حدٍّ علمي.

-هل مرَّ وقت طويل على آخر زيارة؟

-نعم، قد مرَّ وقت طويل جدًّا.

-إنّه أمر كبير... يجب أن تعرف على الأقل إن كانت هناك فرصة للعودة... أو للتَّصالح.

- لا، لا يا ميشكا، إنّه شيء لا يُمكن إصلاحه.

-أهو خطيرٌ إلى هذه الدَّرجة؟

-إنّه مؤلم.

-آه...لكن...ربّما يجب...

تُراقبني، لا أدري في ما كانت تُفكِّر، خاطبتها:

-إذن يا ميشكا، هيا إلى العمل! اِصغي جيّدًا: تاجر التّحف، تاجر الأسطوانات، تاجر الكتب، تاجر الخزائن...ما الجنس الّذي يربطهم؟

-الزَّوَال.

ماري

اِعتادت ميشكا طوال الأسابيع القليلة الماضية على الجلوس في غرفتها بتلك الطريقة، دون أن تقرأ أو تُشاهد التلفاز. ولكنّها تستسلم للنَّوم أحيانًا. أطرق بابها منتظرة الإذن، ولا ألبثُ أن أسمع صوتها:

- هل هذه أنتِ؟

- نعم، هذه أنا يا ميشك. كيف حالك؟

- أوه، لا بأس... لم أُخمِّن مجيئك... لقد توقَّعتُ أن تأتي غدًا، ولم أعلم لِمَاذا لمْ آخذ الأمر على محمل الجِدِّ.

- تقصدين لم تكوني متأكِّدةً يا ميشك، هذا أمر طبيعيّ، فقد ضربتُ لك موعدًا بالجمعة أو السّبت. والآن، هل تشعرين بالتّعب؟

- لا، من هذه الناحية لا تُوجد مشكلة.

- إذن فمن أيّ ناحية؟

- الكلماتُ هي التي *تخولني*[1] (تتردّد طويلاً)، الكلماتُ هي

(1) بدل أن تقول echapper تخونني، قالت echopper التي ليس لها معنى واضح في الفرنسية، تم اعتماد تخولني.

الّتي *تخولمي*[1]...(تتنهّد) هل ترين!

-أعلم يا ميشكا، ولكن لا يزال في حوزتكِ الكثير من الكلمات، وفي مقدوركِ ابتكار كلمات جديدة. هل جاء أخصّائي النُّطق لرؤيتك؟

-نعم، نعم، لكن.... ليس الأمر يسيرًا...فالتّمارين **صععع**... **صصص**...صعبة. هل تودّين مُعاينتها؟

تمرّر لي ورقةً تحتوي على كلماتٍ ورسوماتٍ. قلتُ:

-المطلوب هو أن تُخمّني الأضداد.

- لا، *المراديف*[2].

-المرادفات؟

-نعم، غير أنّي لا أكترثُ بالمراديـــ..... بتلك الأشياء... أتفهمين! فالكلمة الصَّحيحة هي الّتي تتلاشى، ولن تُجدي كلُّ محاولاتي في استرجاعها نفعًا. صرتُ مُوقنةً بما ستنتهي إليه الأمور. وفي النهاية، لن أحصل على شيء، وحين لا يبقى شيء، لن تكون هناك كلماتٌ أخرى، ولا أيَّ شيء لملء الفراغ. هل تفهمين؟ ولكِ أن تتخيَّلي، **مونولود**[3]..

(1) بدل أن تقول echapper تخونني، استعملت écharper التي تعني مزق. تم اعتماد تخولمي.

(2) بدل أن تقول synonymes المرادفات، قالت synorimes التي ليس لها معنى. تم اعتماد المراديف.

(3) بدل أن تقول monologue التي تعني حوارا داخليًا قالت monospace ثم -mono glotte، تم اعتماد مونولود. مونولوف.

مونولوف عجوز وحيد.

- لم نصل بعد إلى تلك المرحلة.

- نحن لسنا بعيدين عنها. صدِّقيني يا ماري النهاية ليست بعيدة، أعني بالنِّهاية فقدان العقل، الضَّياع، *الررحي*. وقد بدأتْ المرحلة، إذ صارت الكلمات الآن تهربُ فجأة ثمّ تختفي.

- لا تقولي هذا يا ميشكا. هل تتردَّدين على ورشة الذَّاكرة؟

- لم تعد لي رغبة في ذلك، أُفضِّل أن أنتظر قدوم الشَّاب...فهو وسيم للغاية، كما تعلمين، وينبغي عليك رؤيته.

- لكن يا ميشك أحدهما لا يمنع الآخر: يأتي أخصّائيّ النُّطق إلى غرفتك مرَّتين في الأسبوع، ويُمكنك ارتياد ورشة الذَّاكرة يوم الأربعاء مع الآخرين. ألم تُجرِّبي ذلك؟

- لا أرغب في ذلك، هناك من تُجيب عن كلِّ الأسئلة مباشرةً .....دون تردُّد ولو ثانية واحدة. تُعطي على الفور الإجابة الصحيحة، فهي تعرف كلَّ الكلمات الممكنة والمتخيَّلة، ثمّ تنصرفُ بفخرٍ. هل تفهمين؟ ما الذي يدفعها إلى حضور الورشة إذا كانت تعرفُ الإجابة عن كلّ الأسئلة؟ بالإضافة إلى ذلك، كان بإمكانها أن ترتدي ملابسَ لائقةً، ولكنّها لا تفعل، فهي ترتدي فستانًا ريفيًّا كأنّه آخر صيحة، هل تفهمين؟

- ربّما يجعلها الفستان تشعر براحةٍ أكبر.

-نعم، ولكن القليل من التّساهل لن يضرَّ. لماذا تضحكين؟ حسنًا، على الأقل ثمّة أشياء تُضحكك. أظنُّ أنّه لديك أشياء أهمّ للقيام بها، وصراحةً لا يجبُ أن تأتي كثيرا إلى هنا، فالمكان مُمِلٌّ كما ترين.

-اسمعي ميشكا، تحدَّثنا عن هذا من قبل، أنا آتي إلى هنا لأنَّ ذلك يُشعرني بالسَّعادة.

-أنت تُضيِّعينَ وقتك، وفوق ذلك تجدينني على هذه *الحيلة*[1] ..في هذه *الحالة*...في هذا *الحالو*. أنت تعلمين أنه لا فائدة من القدوم.

-اسمعي...هل تذكرين يا ميشك اليوم الذي زُرتني فيه في المستشفى؟

-نعم أتذكَّر، عندما كنتِ مريضةً، كنتِ...وكان علينا القول.....

تشردُ ميشكا للحظات. ثمّ تُردف:

-هل كُنت تعلمين أنَّك أوشكتِ على الموت؟

-أعلم يا ميشك، فقد قضّيتُ أيامًا في غُرفةٍ صغيرةٍ، عُدتني مرّات عدَّة، هذا صحيح؟

تهزُّ برأسها موافقةً. خاطبتها:

---

(1) بدل أن تقول ...état، التي تعني الحالة، قالت etau، ثم قالت etatage، تم اعتماد الحيلة، الحالو.

- إذن، هذا يعني أنّه يُمكنني القدوم لرؤيتك عندما أريد.

ابتسمتْ لي، ثم قالت:

- وأنتِ، ألا تحكين لي شيئًا...كيفَ تسيرُ أمورك؟

- لا بأس، كلّ شيء بخير.

- وأمور العمل؟

- أنا بخير، لقد بدأتُ بمفردي في مُعالجة ملفَّات عملي، وهذا بالنسبة إليّ أمر مهم.

- ألا يستغرقُ ذلك وقتًا طويلًا؟

- لا، لا بأس، فشبكة الطُّرقات جيِّدة.

- هل تعتنين بنفسك؟

- نعم، نعم، لا تقلقي.

تُراقبني لوهلة، ثمّ تهمس لي:

- هل قمتِ بتصفيف شعرك؟

- نعم يا ميشك، قمتُ بتصفيف شعري.

- أنت تبدين شاحبةً قليلًا...هل تأكلين جيِّدًا؟

- نعم، نعم، آكل جيّدًا.

- هل تدرين أنّه أضحى لدينا *مقاومة* جديدة تُقاسمنا الطَّاولة بالمطعم. هل أخبرتك بذلك؟

- تقصدين مُقيمةً؟

نعم، إنّها تتحدّث طوال الوقت، بينما اعتدتُ دائمًا التَّظاهر بعدم

السَّماع من هذه الأذن، حتّى لا أُضطر إلى الردِّ عليها. فهي تستمرُّ في الحديث بلا توقُّف، مُطلقةً سيلًا متتابعًا من الكلمات بطريقة لا يُمكنكِ تخيُّلها، تتحدَّث وتواصل الحديث بلا خجل، كما لو كانت الوحيدة في العالم. لهذا السّبب، أنا وأرماند -هل تذكرين أرماند التي أُحبِّها كثيرًا؟- نتظاهر بهذه الحيلة...

في غضون ثوانٍ، تتقمَّصُ دور شخصٍ غارقٍ في الأكل، متجاهلًا تمامًا أيَّ حديث يدور حوله، وكأنَّه لم يسمع شيئًا. خاطبتها:

- وهل ستنجحُ الحيلة؟

- أعلمُ يا ماري أنك تَعُدِّين ما أقوله مجرّد قصص عجائز، وربّما كان ينبغي عليكِ أن تُخاطبيني كذا: انتبهي يا ميشكا فأنتِ تروين قصص العجائز. لا أريدك أن تظنّي أنّني *أشكل*[1]... *أنني أشكو*، ولكن من الجيِّد أن أُعبِّر عمّا في داخلي. ورغم أنَّ وضعي ليس سيِّئًا، كما تعلمين، فالنّاس هنا طيّبون، إلاّ أنّني أُفضِّل العودة إلى بيتي.

- أعرف ذلك يا ميشكا، لكن لا يُمكنك البقاء وحدكِ في بيتك، أتذكرين؟

- نعم أذكر.

صمتتْ ميشكا لثوانٍ، مُستغرقةً في التفكير، ثم دنتْ منّي وحدّثتني بصوت خافت كأنّها تبوح بسرٍّ.

---

(1) بدل أن تقول plainte التي تعني أشكو، قالت plante التي تعني أزرع ولا محل لها هنا، تم اعتماد كلمة أشكل.

- أتعلمين يا ماري، أردتُ أن أطلب منك عملًا لا يُمكنني فعله، أودُّ أن أنشر... *ملصقا*... في الجريدة...

- مُلصقًا؟

- نعم، مثل الّذي نشرناهُ سابقًا.. بهدفِ البحث عن أشخاص.

- تقصدين إعلانًا؟

- نعم.

- لعلّك تعنين الإعلان الّذي نشرناه في جريد *لوموند*؟

- نعم.

- أترغبين في محاولة جديدة للعثور على الذين استضافوك وأنتِ صغيرة؟

- نعم.

حدَّقتُ ثواني في وجهها، أدركتُ من خلال ملامحها مدى أهميَّة الإعلان بالنِّسبة إليها، ومدى أهميَّته أكثر الآن. اِنتبهتُ إلى اِرتعاش خفيف في ذقنها، كانت علامةً على اضطراب أو تأثُّرٍ عاطفيّ ظهر مُؤخّرًا، منذ أن استقرَّت هنا في دار الـمُسنِّين، ولم تكن ميشكا واعيةً بهذا التغيُّر.

قلتُ:

- حسنًا يا ميشكا، بالطبع سأهتمّ بالإعلان، ولكن لا تفرطي في الأمل، أنت تذكرين أنّنا قد جرَّبنا سابقًا ولم ينجح الأمر؟ والمشكلة أنّنا لا نعرف أسماءهم.

-أعلم ذلك.

-سأعيد نشر الإعلان نفسه، وأترك لهم بياناتي الشَّخصية للاتّصال بي إذا ما وَرَدَ أيُّ جديد. هل أنت موافقة؟

-نعم، *مرافقة*[1]. شكرًا، شكرًا جزيلاً، لا تنسي تزويدي بالفاتورة.

- لا تقلقي بشأنها. المهمُّ أن تعلمي أنَّ الفرصة ضئيلة.

-أعرف.

-هل ترغبين في التنزُّه قليلًا في الحديقة؟

-آه نعم، بكلّ سرور. سأرتدي *معطفي الكوفي*[2]....*الروفي* ....الّذي أهديتني إيَّاه. أتعلمين، لا تكاد غريس كيلي تُفارق مُخيَّلتي، لا بدَّ أنها تحلم أن تملك معطفًا مثل معطفي.

اقتحمت المديرة المتعجرفة غرفة ميشكا من دون أن تطرّق الباب، ولم ترَ أيَّ داعٍ لإلقاء التّحيَّة. كانت غاضبة، لوّحت بنُسخة من صحيفة *لوموند*، ثمّ خاطبتها:

-هل أنتِ من نشر هذا الإعلان؟

أومأت ميشكا برأسها موافقةً، فانفجرت المديرة غاضبةً:

-هل أنا أحلم أم ماذا؟ ماذا تحسبين نفسكِ يا سيِّدة سالد؟

---

(1) بدل أن تقول ميشكا d'accord التي تعني موافقة قالت d'abord التي تعني أوّلا، اعتمدت مرافقة.

(2) بدل أن تقول polaine التي تعني الصوفي، قالت colère التي تعني الغضب، ثم قالت polaire التي تعني قطبي. تم اعتماد: كوفي

أنت مجنونة تمامًا! لقد فقدت عقلك! أنت لست في وعيك! إعلان؟ ولمَ لا تُطلقين حملةً إعلانيّةً ما دُمتِ قد اخترت هذا الطريق؟ أو إعلانًا تلفزيونيًّا؟ أو منطادًا هوائيًّا! أو حتى طائرةً تحمل لافتةً فوق الشاطئ! هذا غير معقول...إعلان! نحن في القرن الحادي والعشرين يا سيِّدة سالد، قد انتهت الحرب، وخَطَتْ مُؤسَّستنا خطوات في طريق النموِّ والازدهار بسرعة. وها أنتِ تسمحين لنفسك بنشر هذا الإعلان الذي قد يضرُّ بسمعتنا؟ أتفهمين معنى السُّمعة؟ هل لديك أدنى فكرةٍ عن قيمتها؟ إنَّها المحرِّك الأساسيّ في عالمنا اليوم! إذ يمكن أن تنهار أي مؤسَّسة بسببها في أقل من أربع وعشرين ساعة!

ركنت ميشكا إلى الصَّمت، بقيت جالسة على سريرها مثل طفلةٍ صغيرةٍ، ويديها على فخذيها.

فتحت المديرة الصحيفة على صفحة الإعلانات الشَّخصيّة، وشرعت تقرأُ بصوت عال وساخر:

«تبحثُ ميشال سالد المعروفة باسم ميشكا عن نيكول وهنري اللَّذين استضافاها في منزلهما بقرية *لا فيرتي سو جوار* ما بين سنتي 42 و45. نيكول وهنري! ألا تعرفين حتّى اسمهما العائليّ؟».

- لا.

- كيف أنقذَك هؤلاء ولم تتذكَّري حتّى اسمهما العائليّ؟ كما أنَّك لا تلتزمين بورشات تدريب الذَّاكرة. هذا عار....هل أنت متأكِّدة من الأسماء؟ وما اسم القرية؟

بقيت ميشكا صامتة، عاجزة بسبب صدمة الموقف.

أضافت المديرة:

-على أيِّ حال لن يُفقدك كلامي شهيَّتك! فأنتِ تلتهمين شوكولا السيِّدة دانفيل! وتشربين عُلبة عصير التُّفاح الصغيرة! ولا تتردَّدين في تناول الكرافس بصلصة الريمولاد! أما حين يتعلَّق الأمر بتمارين السيِّد ميلو فتتغيَّبين ... هذه فوضى بل كارثة حقيقيّة! ألا ترين أنَّك تشغلين غرفةً كاملةً وحدك، وتأكلين بشراهة، وتقضين وقتك في نادي السينما، وأحيانًا تستمتعين بالتنزُّه في الحديقة! ربّما لا فائدة من إخبارك بأنَّك تُكلِّفين مؤسَّستنا كثيرًا يا سيِّدة سالد. ولكن ما الذي تُضيفينه لنا في المقابل؟ ها؟ وهذا ما يطرح مشكلةً مُهمَّة في نسبة أرباحنا كما تعلمين، ولا يُمكن أن يستمرَّ الوضع على هذا النحو. آسفة لإخبارك بذلك. في الحقيقة أنت لا تُقدِّمين لنا شيئًا. أنا أعي جيدًا ما أقول: لا شيء تُقدِّمينه. ولكن ماذا تعتقدين، قد مات من تبحثين عنهم! ماتوا! ماتوا! ماتوا! في الحقيقة إنهم ماتوا ولم تُقدِّمي لهم حتى واجب الشُّكر!

نهضت ميشكا غارقةً في عرقها، اعتدلت على سريرها، يخفقُ قلبها بقوّة، وتُكافح لاستعادة أنفاسها، أخفت وجهها بكفَّيها لتخبِّئ شهيقها.

بعد بضعة أيّام دخلتُ غرفتها، وجدتها تقفُ وسطها في مواجهتي، مستندةً إلى عُكَّازها. قالت:

- أنا أعرف كيف أُرتِّب سريري على أيَّة حال! صحيح أنَّ الترتيب يستغرق منِّي وقتًا طويلًا، *لا أبكر*[1] *ذلك*، ولكنّني أُجيد فعله. بيد أنّها كلّ يوم تُعيد ترتيبه من ورائي، تُعيد الكَرَّة كلَّ صباح، تَشُدُّ على ...*غناء*[2] *السّرير*. أَترين، إنهَّا تجعلني أبدو كأنّني لا أعرف كيف أُرتِّبه بمفردي.

- من تقصدين؟

- الخادمة!

- عليك يا ميشك إخبارها بألّا تُعيد ترتيبه من بعدك.

- أخبرتها! فحدَّقت نحوي بازدراء كأنَّني مجرَّد عجوز لا قيمة لها.

- ربّما تحرصُ فقط أن تقوم بعملها بإتقان. هل تُريدين أن أُفاتحها في الموضوع؟

- لا، لا، هناك مواضيع أخرى لمناقشتها. أتعلمين أنَّ الأمر نفسه يحدثُ معي عند الاستحمام، فالموظفة الجديدة المُتسلِّطة تتحكَّم بي، ولا تتركني أستحمّ وحدي.

---

(1) بدل أن تقول contraire التي تعني الانكار: لا أنكر، قالت confrère التي تعني الزمالة. تم اعتماد كلمة لا أبكر.

(2) بدل أن تقول couvre-lit التي تعني غطاء السرير، قالت couvre-pli التي لا تعني شيئا محدّدا. تم اعتماد كلمة غناء السرير.

- أعلم يا ميشكا، هذا إجراء طبيعيّ لحمايتك بعد سقوطك ذلك اليوم. إنّه مجرَّد احتراز كيلا تُؤذي نفسك.

- نعم، لكن راحتي لا تكمن في هذا الأمر يا ماري، بل أسعى أن أكون....

تبحثُ بضع ثوانٍ عن كلمة دون أن تجدها.

- مُرتاحة؟

- نعم، هذه هي، مُرتاحة. أنت تعلمين أنّه ثمّة دائمًا شخص يدخل الغرفة حاملًا معه الطَّعام والأقراص، ووجبة خفيفة، وقد يمدُّنا بالغسيل، ويُرتِّب لنا السَّرير ثم يقوم *بالتوظيف*[1] . لينتقل إلى السُّؤال عن أحوالنا مُستفسرًا عن هذا وذلك. طوال الوقت يُدَقُّ الباب ثم يَمثُلون أمامنا، هل تتخيَّلين ذلك؟ وإذا لم ترغبي في رؤيتهم لا يُمكنك...الاختفاء.

- أعلم ذلك، ميشك، أفهمك، هل تودِّين الجلوس قليلًا؟

تتهالك على الأريكة، ثم تسألني:

- إذن هل قُمتِ بنشر الإعلان؟

- نعم يا ميشكا. سيُنشر هذا الأسبوع في جريدة *لوموند*، وفي الأسبوع المُقبل في جريدة *لوفيغارو*، وسأُزوِّدك بكلّ مُستجد.

قامت ميشكا بتسجيل المعلومة.

---

(1) بدل أن تقول manager التي تعني التنظيف، قالت méninge. تم اعتماد التوظيف.

ومن الآن فصاعدًا ستعيش ميشكا الانتظار دون أن تجرؤ على سؤالي، ولكنّها ستُبقي نافذة الأمل مُشرّعة لأطول فترةٍ ممكنة.

قالت:

- كما ترين، يحدث *الأجر*[1] نفسه مع سُتراتي. على كلّ حال أعرف كيف أُرتِّبها بنفسي، فلِمَ تتدخّلين في أموري؟

- أخبريني الآن، ألا تَخشين أن يُكتشف أمر زجاجة الويسكي الخاصّة بك؟

- لا تهتمّي فقد خبّأتها جيّدًا. وفوق ذلك لا أحبُّ *أن يُفتر*[2] أحدٌ ممتلكاتي. وأنت ما جديدك؟

- كلّ شيء على ما يُرام يا ميشكا.

تُراقبني للحظات قليلة. ثم تسأل:

- هل تُسرِّحين شعرك؟

- نعم، أقوم بتسريحه يا ميشك، لقد شرحتُ لك من قبل أنّ الشَّعر المُجعَّد ليس من السَّهل تسريحه مثل غيره....

- حقًّا...أنت قلت هذا. إنّه لأمر مؤسف.

يسودُ الصَّمت للحظات، نستغرقُ في التَّأمل. أردف:

- في الواقع أودُّ لو أُسرَّ لك بأمرٍ يا ميشك... أنا أنتظر مولودًا.

تتظاهر بأنَّها لم تسمعني.

---

(1) بدل أن تقول la meme chose التي تعني الامر نفسه، قالت la meme pose . تم اعتماد الأجر نفسه.

(2) بدل أن تقول fuire التي تعني يفتش، قالت frouille، تم اعتماد يُفَتِّر.

- لديَّ شوكولا إن كُنتِ ترغبين في أن أُشاركك بعضها. إنها *بذوك*[1] الكحول، ولكن بقدرٍ يسيرٍ، ثلاثُ قطع ليست شيئًا كبيرًا. وهي *لبيبة*[2]. قد أعطتني إيَّاها السيِّدة دانفيل.

خاطبتها:

- ميشك، هل سمعت كلامي؟

- أي شّاب؟

- ماذا تعنين بأيِّ شّاب؟

فجأةً انتابها الغضب،

- ألا تعرفين من هو الشّاب؟

- بلى بلى أعرف، لكنِّني لست متأكدة من أنه يُريد أن يكون أبًا،

- تعرَّفتِ إليه مؤخّرًا؟

- نعم، عفوًا لا، ليس حديثًا، قد مرَّ على تعارفنا بعض الوقت. يُدعى لوكاس، أذكر أنّني حدَّثتك عنه مرَّة أو مرَّتين. تعرَّفتُ عليه في حفلة، هو شخصٌ لطيفٌ ولكنّنا لا نعيش معًا، ثمَّ...هو مُضطر إلى الرحيل خارج البلاد، أنت تعرفين، لم أكن أعتقدُ أنني سأحمل، سبق وأن أخبرني الطبيب، عندما كنتُ في المستشفى، أنّه من الصعب أن أحمل، لهذا لم أحسب حسابًا للأمر.

---

(1) بدل أن تقول gout التي تعني ذوق، قالت doute التي تعني شكّ. تم اعتماد بذوك.

(2) بدل أن تقول dilicieux التي تعني لذيذة قالت delecueux التي لا معنى لها. تم اعتماد لبيبة.

- صحيح، عندما كنتِ مريضة...كنت..

قامت بحركة غريبة تُحاكي حركة البخار، ثمّ قالت:

- أنت كنتِ تماما...هذا صحيح..إذن هذا مذهل..بطنك الآن كبيرة.

- نعم بالضبط، بطني كبيرة يا ميشك، وهذا يُخيفني جدًّا..

بقينا على هذا الحال لثوانٍ، أُراقب نظراتها لأستشفَّ ردَّة فعلها. هل تحمل تشجيعًا أم إدانةً؟ لكنّها ظلّت تُراقبني بصمت، بانتباهٍ أكثر من أيّ وقت مضى. ثمّ قالت:

- هل أخبرتِ الشَّاب؟

- لا ليس بعد، أُريد أن أحسم الأمر مع نفسي أوّلًا، أنا خائفة يا ميشك، ولا أدري ما إذا كُنتُ قادرةً على أن أكون أُمًّا. أنا خائفة من العجز عن تحمُّل المسؤوليّة. أخشى أن أُكرِّر الأشياء، أو أن تتكرَّر رُغمًا عنيِّ، مثل لعنة، أو نقمة. إنّه شيء ماثل هنا، يقبعُ في الظلِّ، وفي الذكريات، وفي الدَّم، وفي تاريخ العالم. شيء لا يُمكننا الوقوف ضدَّه، هل تفهمين؟ ثمّ هل لديَّ ما يكفي من الحُبِّ، والصبر والاهتمام؟ كيف أعرف إن كُنتُ أقدر على تربية طفل، وتقبيله، والعناية به؟ هل سيكون في استطاعتي التّحدُّث معه، أن أبوح له بالأشياء المهمّة، وأن أسمح له بصعود الزلَّاجة الكبيرة، أو أن أتركه يعبر الشارع بمفرده، وقد أمدُّ له يد العون عند الضرورة؟ هل سأُحسِنُ فعل ذلك؟ أخشى أن أعجز على أن أمُدَّه بما

يكفي من حبٍّ أو أن أُحبَّه أكثر مما يجب، أخاف أن أُصيبه بأذى، أو ألاّ يقوى على حُبِّي.

- إن لم يكن الأمر يسوؤك ....عندما انتهي من الشوكولا الجديدة التي قدَّمتها لي السيِّدة دانفيل ماذا يُمكنني أن أُهدي لك...؟

- ربما من الأفضل أن أُجري عمليّة إجهاض.

- لا، هذا لا!

- ماذا تعنين بلا؟

- لا، لا، لا....فليس لهذا الأمر علاقة بتلك المرأة الرائعة، ذاتِ العقيصة المذهلة، والمنظر المثالي. تبدو دائما ***أليقة***[1].

لاحظتْ ميشكا دهشتي. واصلتْ:

- ولكنّك تعرفين جيّدا تلك المرأة التي خرجت من المعسكرات...

- سيمون فاي؟

- نعم، تلك المرأة التي قامت بعمل رائع من أجل النِّساء. كان عملًا ***عظيلا*** [2]. ولكنّ موضوعنا لا علاقة له بتلك المرأة.

- في الواقع لا علاقة له بها...

---

(1) بدل أن تستعمل الصيغة المعروفة !tirée à quatre epingles التي توصف بها المرأة التي تحسن التأنق، أخطات الكلمة الأخيرة في الصيغة وقالت: tirée à quatre epingles (نفسها؟؟؟؟). تم اعتماد أليقة بدل أنيقة.

(2) بدل أن تقول formidable التي تعني عظيما، قالت: formidouble، تم اعتماد: عظيلا.

تركتُها غارقةً في أفكارها، وقد بدا عليها تأثُّر عميق. فقرَّرتُ كسر حاجز الصَّمت وقُلت:

- هل تستطيعين القراءة؟

- لا، لأنّ حجم الخطّ صغير.

- ولكنّني أحضرتُ لك سابقًا كُتبًا بحروف كبيرة، هل جرَّبت قراءتها؟

- أيَّ كتب؟

- الكتب الّتي أحضرتها لك مُؤخّرًا، كانت بحروف كبيرة.

- بحروف كبيرة؟ تلك الـمُوجَّهة للعجائز...قد قمتُ بإعارتها إلى «النَّوع»

- أيّ نوع؟

- «النوع» الّذي علّمني كيف أفتح النافذة بالمِدَمَّة، علمًا بأنّ ذلك ممنوع هنا.

- ولكن من هو؟ هل ينتمي إلى طاقم العمّال ؟

- ولكن لا، قُلت لك إنّ هذا ممنوع.

- إذن من هو؟

- «النّوع» الّذي بالجوار، لا يُمكن أن أصفه أكثر، لقد رأيتِهِ من قبل، كان يرتدي بدلة تويست.

- السيِّد تارديان؟

- نعم، صدِّقيني، إنّه يعرفُ المكان جيّدًا. فقد قضّى فيه وقتًا

طويلًا. وقد أراني بواسطة...ال..ال..(تتنهّد) ال... تاك ! في الواقع، يُمكننا فتح النافذة بطريقة *مفاجعة*[1]، لكنّنا لا نملك الحقَّ في فعل ذلك. وعندما تأتي ...هووب ....تقوم بحركتها المعتادة (تلك المرأة التي تتظاهر بالقفز من النافذة، لكنّها تبقى ثابتة في مكانها)، ولا ألبث أن أُغلق النَّافذة.

- انتبهي، على الأقل لا تقومي بحركات خطيرة!

- يجب أن يكون حادًّا جدًّا، جلبته من المطعم، في المساء الذي طهوا لنا فيه ال... الروز..ريسيف...

- أتعنين لحم البقر المشويّ (الروزبيف).

- أتعلمين، لم يكن عندي ...

- أتعنين لحم البقر المشويّ (الروزبيف)؟

- لا، الأطفال.

- أعلمُ جيّدًا ميشك، ولكنّني معك، أنا هنا.

- أتعلمين أنّني بكيتُ كثيرًا عندما أخبرك الطبيب بمرضك. وقال لك إنّه ليس مؤكّدًا، ليس مؤكّدًا على الاطلاق، وإن بطنك قد تكبرُ وتستدير يومًا مّا. حينها بكيتُ كثيرا، وفي وسعي أن أُذكّرك بذلك اليوم.

- هذا صحيح، ولكنَّ الوقت قد لا يكون مُلائمًا الآن.

---

(1) بدل أن تقول en claque التي تعني بطريقة مفاجئة، تقول en flaque. تمّ اعتماد مفاجعة.

- ربما لن يكون هناك وقت مُناسب أبدًا.

حدّقتْ من النافذة، ثمّ استدارت إليّ من جديد وأضافت:

- أتعلمين يا ماري، أنا لم أشأ أبدًا أن أُرزق بالأطفال، حتّى القليل منهم. لم أتمنَّ لا عائلةً ولا أولادًا، ولا أيّ شيء، ولولا أنّك لم تسكني في الشقَّة التي فوق شقتي لكنتُ بقيتُ هكذا، ولظللتُ مجرَّد *جالة*[1]، مطمئنة في *بيني*[2]. لعلّك تذكرين يوم زرتني أوّل مرَّة بسبب شعورك بالوحدة. منذ متى كان ذلك؟ منذ يوم أو يومين؟ لم ترغبي في التصريح، وأنا أيضا كُنتُ خائفةً. يومها أكلتِ ثمّ صعدتِ وحدكِ، وبعد مغادرتك لم أستطع *الدوم*[3] تلك الليلة. ثم عُدتِ للمرَّة الثانية، وحدَّقتِ فيّ بعينيك الكبيرتين، فاستضفتك في بيتي. وفي كل مرَّة كنت تعودين كنتُ *أستديفك*[4] طوال السَّاعات التي تلي الزوال كاملةً. ولم ألبث أن اشتريتُ أقلام اللُّباد وأوراقًا ملوّنةً ومقصَّات. لعلّك تذكرين ألعاب حديقة الحيوانات في أوقات الصباح، وحمار الوحش الصغير البلاستيكي المفضَّل لديك، وعجينة التَّشكيل، وحلوى ميستر بشراب الفراولة التي كُنا نضعها في *المُجمّل*[5] ؟ لقد كنتِ تزورينني كلّ ليلة

---

(1) بدل أن تقول voisine التي تعني جارة قالت: bassine. تم اعتماد جالة.

(2) بدل أن تقول coin التي تعني بيتي، قالت foin . تم اعتماد بيني.

(3) بدل أن تقول dormi التي تعني النوم، قالت fermi . تم اعتماد الدوم.

(4) بدل أن تقول accueillir التي تعني الاستضافة قالت cueillie. تم اعتماد أستديفك.

(5) بدل أن تقول freezer التي تعني المجمد، قالت freezer. تم اعتماد المجمل.

تقريبًا، وعلى هذا المنوال جرت الأحداث: رنَّت الجرس *بتات*[1] صغيرة بينما كُنتِ نائمةً. وعندما خرجتْ الأمور عن السَّيطرة، ولم تسر على ما يُرام، حدث بعدها...حسنًا إذن. ليس هذا هو الأمر المهمّ، كما أنّه ليس عليَّ أن أُخبرك بكلِّ شيء...عُذرًا، أنتِ أدرى وعليك الاختيار. ولكن أُريد إخبارك بشيءٍ واحدٍ وهو عليك العثور على الحلِّ: هذا هو الأمر المهمُّ أكثر من أيِّ شيء.

- ما هو؟

- أول مرَّة في *حيادي*[2] أهتمّ بشخصٍ آخر، شخصٌ آخر غير نفسي. إنَّ هذا الأمر يا ماري هو الّذي غيَّر كلّ شيء، أن تخافي على شخصٍ آخر، شخصٌ آخر غيرك، إنّها أكبر نعمة يُمكن أن ينالها الإنسان.

- أرأيتِ، لقد أضحى لديك كلماتٌ مناسبةٌ.

تسلَّلت مشاعر الإطراء إلى قلب ميشكا.

- نعم، هذا صحيح، في حالة *الطوارد*[3] .

- هل تُريدين أن أُحضِر لك شايًا من الماكينة؟

- نعم، أُريده وبشدَّة فأنا مُرهقة كما تعلمين. شاي بـ*الليبون*[4] من فضلك.

---

(1) بدل أن تقول fille التي تعني فتاة قالت bille. تم اعتماد بتات.

(2) بدل أن تقول ma vie التي تعني حياتي، قالت mon avi . تم اعتماد حيادي.

(3) بدل أن تقول urgence الطوارئ، قالت emergence. تم اعتماد الطوارد.

(4) بدل أن تقول citron التي تعني الليمون، قالت cidre. تم اعتماد الليبون.

- تقصدين باللَّيمون؟

- نعم.

اِعتادت ميشكا التأنّق في الأيّام الّتي تنتظرُ فيها زوّارًا، وقد تختار كنزةً زرقاءَ سماويّةً تُبرز لون عينيها، أو ربّما تعتمرُ سُترتها ذات اللّون الرمليِّ الّتي تتناسب مع بنطالها.

تعوّدتُ الاتّصال بها قبل مجيئي، كُنت أُفضِّل أن يكون الاتِّصال في المساء الذي يسبق الزِّيارة، لكي يتسنَّى لها أن تستعدَّ بما يكفي للِّقاء. أدقّ الباب ثم أقبِّلها مباشرةً بعد دخولي. فتُخاطبني:

- لم يكن من الضَّروري أن تتكلَّفي مشقَّة الزيارة فقد لا تكون مريحةً لك، كما أنّه يتوجَّب عليك أن تخلدي إلى الراحة.

- قد ناقشنا هذا الموضوع سابقًا يا ميشك. أنا أزورك لأنَّ ذلك يُسعدني. والآن كيف تشعرين؟

- أنا بخير، غير أنَّني لا أعرفُ ماذا يحدث حولي.

- ماذا تعنين؟

- لم تعد الخدمة هنا كما في السابق بعد أن تدنَّى المستوى، أتعرفين، مات اثنان من *القاومين*.

- تعنين الـمُقيمين؟

- نعم، تُوفِّي اثنان في أسبوع واحد. منهما السيِّدة كريسبان.. تلك السيِّدة التي كانت تستلم طرودًا تحتوي على أعوادٍ جافةٍ، ثم في تلك اللَّيلة *رححللتت* هكذا.

- هل أحزنك موتها؟ هل تُحبِّين السيِّدة كريسبان إلى هذه الدَّرجة؟

- نعم... لقد أخبرتك من قبل أنَّنا أصبحنا عجائزَ، ويجبُ أن نتحلَّى بالواقعيّة. فنحن في مرحلة لا يدوم فيها شيء، إنها مرحلة الأُفول. ورغم أنّ الأمر مُخيف، إلاّ أنّه ليس مُحزنًا.

- والسيِّدة الأخرى هل تعرفينها؟

- لا، كانت في ***الطابع***[1] في الرابع، كانت تقطن رُفقة ....إنهم ليسوا غامضين، لكنّهم كانوا مثل الأشباح التي تتسكَّع في اللّيل. لذا يجب إغلاقه. لكنَّ المعضلة تكمن في الكاتالوغ.

- أيَّ كاتالوغ؟

- أقصدُ كاتالوغ ***السويس***[2] الثلاث (تتردَّد)...***السويسريدات*** الثلاث.

- لماذا؟

- لقد كان مِلكًا لها.

- للسيِّدة كريسبان؟

- نعم، أعارتني إيَّاه لأشتري ***الأح***[3]...***الأحرمة***. وأنا في حيرة من أمري لأنّني لم أُعده لها.

---

(1) بدل أن تقول etage التي تعني طابق قالت stage. تم اعتماد الطابع

(2) بدل أن تقول trois Suisses، التي تعني السويسريات الثلاث، قالت Ssss... ثم قالت cuisses. تم اعتماد: السويس..السويسريدات.

(3) بدل أن تقول chaussures قالت ...chauss، ثم قالت chansons. تم اعتماد: الأحزمة

- لا بأس عليكِ يا ميشكا، فهي لا تستطيع أخذه معها الآن. هل أعجبكِ شيء في الكاتالوغ؟

- لا، لا، لا أحبُّ كُرات الزينة ؟... أتعلمين، لقد تغيَّرت الأمور وصاروا يقومون بدوريّات في اللَّيل.

- أيّ دوريات يا ميشك؟

- عندما يكون جميع *القاومين* في غرفهم يتناوبون لإعطاء ال.....ثمّ في الصباح أيضا ..أنا أعي جيِّدًا ماذا يعني ذلك.

- أنت تُزعجين نفسك من دون سبب، لقد شرحتُ لك أنَّه من الطَّبيعي أن تقوم الممرِّضات بجولةٍ صغيرةٍ كلّ ليلةٍ للتأكُّد من أنَّ الأمور تسير على ما يُرام.

- ولكنَّني لا أحبُّ اللَّيل.

- ألا تنامين جيِّدًا يا ميشك؟

- عندما يُصيبني الأرق، تختفي الكلمات... تضيع... وفي تلك اللّحظة من اللَّيل، أعلم جيّدًا أنّها ستتلاشى، ستهرب. أنا مُتأكِّدة من ذلك، لكن لا يمكن فعلُ شيء. إنّها تُفلت إفلات عرباتٍ تنطلق بسرعةٍ جنونيّةٍ. وإن صحَّ القول، فلا حيلة لي أمام ذلك. حتى أخصَّائي *النُطس*[1]..*النطم*..*النطل*..

- أخصَّائي النُطق؟

---

(1) بدل أن تقول orthophoniste التي تعني أخصائي النطق قالت على التوالي : lornito... loroto..lorto. تم اعتماد: النطس، النطم، النطل.

-نعم، قال لي حين تبلغين هذه المرحلة فإنَّ الرسومات التوضيحيّة لن تُفيد في شيء.

-أنت تُبالغين، أنا متأكِّدة من أنَّه لم يقل ذلك، أنت فقط لا تُحبِّين التمارين.

-التمارين مرُهقةٌ، يجبُ عليك أن تَرَيْني في ذلك الموقف حينما أكون مُنهكةً تمامًا وفي حاجة إلى من يُلملِمُني.

شردتْ ميشكا ثواني قليلة مُستغرقةً في أفكارها، ثم قالت:

-لا ينبغي للنِّساء أن تهرمنَ، لكن حسنًا، من الجيِّد أنّك هنا، فقد وددتُ إخبارك أنّني فكَّرت في الأمر، فقد خَلصتُ إلى تفضيل *الترميم*[1].

-ماذا تعنين؟

-*الترميم* من أجل جنازتي، مع تقديم بعض السندويشات الصَّغيرة، ثمّ ينتهي كلّ شيء... تمامًا كما حدث مع السيدة كريسبان. لقد كان الأمر لطيفًا جدًّا.

-تقصدين الترميد؟

-بالضبط، ولكن أُريد أن تكون السندويتشات ***بالسلبون***[2] وليس بالباتي.

---

(1) بدل أن تقول incineration التي تعني الترميد وهو حرق الجثة بعد الموت قالت abréviation. تم اعتماد : الترميم.

(2) بدل أن تقول saumon التي تعني سمك السلمون قالت sermon. تم اعتماد السلبون.

- تقصدين سمك السَّلمون! نعم، حسنًا.. مفهوم.. سأُدوِّن ذلك، لكن لا داعي للعجلة فنحن في سِعة.

- لم أتمكَّن من الذهاب إلى جنازة السيِّدة كريسبان، مع أنهم قد خصَّصوا لنا جميعًا عربة، كنتُ متعبةً جدًا.

- أفهمك يا ميشك، هذا طبيعي عليك أن ترتاحي.

- وماذا عن الصَّغير؟

- أيَّ صغير؟

(بالطبع كنتُ أعلمُ جيدًا عمّا تتحدَّث)

- حسنًا، طفلك! أين هو إذن؟

- حسنًا... إنّه لا يزال هنا. لقد تحدَّثتُ مع لوكاس، وكان متفهّمًا جدًّا، لكنّه مُصمِّم على الرحيل إلى الهند. كما تعلمين، هو يعملُ بشركة «نوفال فرونتيار»، وقد عرضوا عليه أن يكون مُراسلًا محلّيًّا هُناك، نظرًا إلى معرفته الجيِّدة بالبلد. وكما أخبرني منذ البداية أنّه كان ينتظر هذا المنصب، فقد أخبرته أنا أيضًا أنّني لا أُريد الرّحيل.

- لماذا؟

- لأنَّك هنا يا ميشك، ثمّ إنَّه لا يوجد سبب يدفعني إلى العيش في الهند، لقد وجدتُ هنا عملًا يُناسب ما كُنت أبحثُ عنه، وهذا بحدِّ ذاته مُعقّدٌ بما فيه الكفاية...

- والشَّاب، هل هو ...*حانم*[1]...*حانف*..؟

- حانق؟ لا، أخبرني أنّه بإمكاني الاحتفاظ بالطفل إن رغبتُ فيه. وأردف بأنه سيُساعدني عندما يستطيع. لكنّه يُصرُّ على الرَّحيل مهما حدث. وبصراحة يا ميشك إنَّه لا يبدو متحمّسًا لفكرة الحصول على طفل، أعتقد أنّه ليس مُغرمًا بي كثيرًا.

- حقًّا؟ ولماذا؟

(لو قُلت لها إنّه رفض صَرْفَ شيك بقيمة خمسة ملايين يورو لما اختلفتْ ردَّة فِعلها)

- حسنًا، هذه هي الحياة يا ميشك، وعلى هذا النّحو تسير الأمور.

- لكن...هل شرحتِ له أنَّك لا تستطيعين تصفيف شعرك بسبب طبيعته؟

- لا تقلقي يا ميشكا، فالأمر لا علاقة له بشعري. إنّه يملك ضفائر «دريدلوكس». هل تعرفينها؟

- نعم، نعم، حسنًا، ستحتاجين إذن إلى إيجاد حلٍّ بنفسك دون الحاجة إلى خطيب.

- حسنًا، نعم هذا صحيح، ولكن لا بأس سأتدبَّر أمري... في الواقع أعتقد أنّني كنتُ أرغبُ حقًا في إنجاب طفل. هل تودِّين الخُروج قليلًا؟

---

(1) بدل أن تقول furieux التي تعني حانق، قالت frileux ...furtif. تم اعتماد حانم.. حانف.

- لا. ليسَ اليوم أنا مُتعبة.

- هل أنت متأكّدة؟ الطقسُ جميلٌ كما ترين.

- لا، شكرم[1].

(1) بدل أن تقول merci قالت merdi تم اعتماد شكرم.

جيروم

وجدتُها في انتظاري على الأريكة، لا تفعل شيئًا أثناء انتظارها. لا تتظاهر بالقراءة، ولا الحياكة، ولا حتّى الانشغال بأيِّ شيء آخر. أصبح الانتظار، بالنِّسبة إلى ميشكا، أشبه بوظيفة بدوام كامل.

عندما أدخل غرفتها، أُصافحها ثم أسأل عن حالها. تعرضُ عليَّ كوب ماء أو عصير فواكه، إنْ كان لا يزال لديها عُلبة صغيرة مُتبقيَّة من وجبتها الخفيفة. في كلّ مرة، تحرصُ على أن تُقدِّم لي قطعة شوكولا أو حلوى، وكأنّها تُكافئني على صنيعٍ مّا، وكُنت أعلم ذلك.

بيني وبين ميشكا طقوس مشتركة. كانت تُحبِّ اللّحظة الّتي أضغط فيها على زرِّ تسجيل جهازي الرقميِّ. دائمًا ما تبدأ جلستنا بالكلمات نفسها:

«اليوم هو الخامس من سبتمبر. أبدأ تسجيل الجلسة العشرين مع السيِّدة سالد بعد الحُصول على موافقتها».

ثم أسألها:

- هل تُحبيِّن الأمثال يا ميشكا؟

تتجهَّم قليلًا.

أُضيف:

-اليوم سنُجري تمرينًا صغيرًا لتحفيز ذاكرتك ومُساعدتك أيضًا على الحفاظ على مُفرداتك.

-سنرى.

-نعم، سترين، إنّه مُمتع جدًّا. سُأعطيك بداية المثل وعليك إيجاد التَّكملة، وسنبدأ بمَثَلٍ متداول. وكلّ ما عليك فعله هو تخمين الكَّلمة الأخيرة لإكماله. هل أنتِ مُوافقة؟

تومئ برأسها من دون حماس...

-لكلِّ يوم ما يكفيه من ...؟ (1)

-السُّموم(2).

-هل أنتِ مُتأكِّدة؟ سأُعيده عليك: لكلِّ يوم ما يكفيه من..؟

-العُموم.

-الهُموم يا ميشكا، كدتِ تُصيبين. إليك مثلًا آخرَ: الغائبون دائمًا هم...؟

-المنشغلون...المخطئون!(3)

---

(1) À chaque jour suffit sa peine /Matthieu 6:34.

(2) لكلّ يوم ما يكفيه من الهموم/ بدل أن تقول peine التي تعني العناء او الهموم، قالت: Chaîne/ Plaine. تم اعتماد : السموم، العموم.0.

(3) بدل أن تقول tort التي تعني المخطئ، قالت fort. تم اعتماد المنشغلون.

- صحيح.

- لا دُخان من دون ..؟

- نار.

- الحقيقة في قاع ...؟

- الحقل؟...تُفكِّر قليلا..البُركان؟

تنظر إليَّ بانزعاج،

- لا أعرف هذا المثل.

- الحقيقة في قاع البئر. ألا يعني لكِ شيئا؟

- لا شيء على الاطلاق.

- مَثَلٌ آخر: الاعتراف بالخطأ هو نصف ...؟

- ها..! هل زُرته؟

- من؟

- والدك.

- لم أقل إنّني سأفعل يا ميشكا، قُلتُ إنّني سأفكِّر في الأمر فقط.

- وهل فكَّرت؟

- نعم، أنا أُفكِّر في ذلك، ولكن الأمر يستغرقُ وقتًا، ولا يُمكن اتِّخاذ قرارٍ كهذا بسهولة. إنَّ الأمر مُعقَّد ومحفوف بالخطر كما تعلمين. هيَّا لا تستغلي الأمر في تشتيت انتباهك، إليكِ مَثَلًا آخرَ: دع ما لا يعنيك إلى ما ..؟

-إنّي أشعرُ بالخوف من أجلك. والنَّدم.

-أعلم ميشكا، أنا أيضا ينتابني الشّعور ذاته، لكن أحيانا لا خيار لدينا، إنّها مسألة...حماية.

-لكنَّك أصبحت قويًّا الآن، هذا صحيح؟

في تلك اللّحظة، يدخلُ الممرِّضُ الغرفةَ في التوقيت المناسب، وأترك المسجِّلة شغَّالةً. يُخاطبها بصوت عالٍ وواضحٍ، كما لو كانت طفلةً، غير أنَّ ميشكا لا تبدو مُتضايقة من تصرُّفه.

-هل طلبتِ رُؤيتي سيِّدة سالد؟ أخبروني أنك كُنت تبحثين عنِّي هذا الصباح...

-آه، نعم، هل يُمكنك أن تعطيني شيئا يكون أكثر...نفعًا في...في جُرعتي المسائيّة..الحو..الحي..

-المراهم؟

-لا، لا...إنّها أشياء صغيرة جدًا، مثل هذه، نضعها هنا وهناك..اثنتين أو ثلاثًا...

-الحبوب؟

-نعم،

-أنت تتحدَّثين عن علاجك يا سيِّدة سالد، قد وصف لك الطَّبيب كبسولتين، واحدة تُؤخذ عند السَّاعة السَّادسة مساءً، وأخرى في وقتٍ لاحقٍ ليلا.

- ما اسمها؟

- الحبوب الّتي تتناولينها على السَّاعة السَّادسة اسمها *أوميبرازول*، أمّا التي عند العاشرة مساءً فتُسمَّى *ميانسيرين*.

- أيّها أكثر *دررا*[1].

- ليس لهما المفعول نفسه، فدواء العاشرة مساءً يُساعدك على قضاء ليلة هادئة، أمّا دواءُ السَّادسة فهو لمنع آلام المعدة...

- آه...إذن أعطني حبَّة من دواء العاشرة مساءً.

- يجب أن نُناقش ذلك مع طبيبك الـمُعالِج. هل تُريدين تقديم موعد دواء العاشرة؟

- نعم.

- هل تُواجهين صعوبةً في النوم؟

- قد تكلَّم الطبيب كثيرا، ولكنَّه لم يعنِ إلا القليل.

- ومع ذلك، يجبُ استشارة طبيبك أوّلًا، يبدو أنّ حالة التوتُّر تُلازمك طوال المساء.

- أوه، ليس إلى هذه الدّرجة.

التفت إليَّ لحظتها، كأنّه يبحثُ عن تأييد منّي، ثم قال:

- تصّور، كانوا مع السيِّد ترديان يحتفظون بالسَّكاكين في غرفهم ليعبثوا بالنّوافذ.

---

(1) بدل أن تقول nocif التي تعني الضرر، قالت noctif، تم اعتماد دررا.

مرّة أخرى، وجّه حديثه إليها، ولكنَّ صوته علا أكثر:

- لا يُمكننا أن نترك السَّكاكين في غرفتك يا سيِّدة سالد، هل فهمت؟

- نعم، فهمتُ جيِّدًا سيِّدي، إنه أمر لا *يدر*[1] لو فتحنا النَّافذة، فلن نختفي.

- بالنِّسبة إلى العلاج سأتحدَّث مع المديرة، وسنُناقش الأمر مع طبيبك الـمُعالِج. أترككِ الآن يا سيِّدة سالد.

يغادر بينما يُصدر حذاءه صوت التصاق على الأرضيّة.

تحدّق بي ميشكا، وتقول:

- أتعرف، إنَّه شخصٌ طيِّبٌ رغم مظهره الصَّارم، يبدو درويشًا ولكنّه مع ذلك طيِّبٌ.

- لا أشكّ في ذلك يا ميشكا. هيّا فلنُتابع تمريننا الصَّغير؟

تُخفض كتفيها فجأةً وتتنهَّد بصوت مسموع. أضحكُ، فتضحكُ هي الأخرى. أخاطبها:

- من يقوى على الكثير، يقوى على ....

- هل أخبرتك أنَّ ماري *عامل*[2].

- تقصدين حامل، نعم قد أخبرتني الأسبوع الماضي.

---

(1) بدل أن تقول ça ne mange pas de pain التي تعني إنه أمر لا يضر، استبدلت الكلمة الأخيرة بـ chien. تم اعتماد لا يدر.

(2) بدل أن تقول Enceinte التي تعني حامل قالت . en plainte . تم اعتماد عامل.

- وهل تعلم أنّها ستحتفظ بالطِّفل وحدها؟

- هل يُزعجك الأمر؟

- ليس كثيرًا.

ماري

عند زيارة ميشكا اعتدتُ مُراقبة المُقيمات، وخاصَّة العجائز الأسنَّ، والمسنَّات بدرجة متوسِّطة، وتلك اللّواتي لا يبدون طاعنات في السنّ كثيرًا. أحيانا تُداهمني رغبة في سؤالهنَّ: ألا يزال هناك من يُلاطفكنَّ؟ من يحضنكنَّ؟ مذ متى لم يُلامس جسدُكنَّ جسدَ شخصٍ آخرَ؟

عندما أتخيَّل نفسي عجوزًا، عجوزًا مُسنَّة، أو عندما أُحاول أن أرى نفسي بعد أربعين أو خمسين عامًا، فإنَّ أكثر الأشياء إيلامًا، وليس في مقدوري تحمُّلها، هو فكرة ألاّ أحد يلمسني بعد الآن، هذا الاختفاء التدريجيُّ أو المفاجئ للتواصل الجسديّ.

ربما يتغيَّر الاحتياج، ربما ينكمشُ الجسد، يذوي ويُصبح خاملًا كما في أيَّام الصيَّام. أو ربّما يحدث العكس، فيصرخُ الجوع صرخةً صامتةً لا تُطاق، ولا يرغبُ أحدٌ في سماعها.

عندما تقتربُ ميشكا منِّي بخطواتها المتعثِّرة وغير المستقرَّة، أشعرُ برغبة شديدة في احتضانها لأمدَّها ببعضٍ من قوَّتي وطاقتي. لكنَّني أتوقَّف قبل أن أضمَّها بين ذراعيَّ، ربما يمنعني الحياءُ، وربما يعوقني خوفي من أن أُؤذيها. فقد أصبحتْ هشةً جدًّا في الآونة الأخيرة.

حين أُصبحُ عجوزًا سأستلقي على سريري أو أتّكئ على كرسي وأستمعُ إلى الموسيقى التي أسمعُها اليوم، تلك التي تنبعثُ من الرَّاديو أو التِّي تُعزف في النوادي اللَّيلية. سأُغلق عينيَّ لأستعيد إحساس جسدي وهو يرقص. إنّه جسدي الحرّ الليِّن الـمُطاوع، جسدي بين الأجساد الأُخرى، جسدي المتحرِّر من كلّ النَّظرات. عندما أرقص وحيدةً وسط غرفتي، عندما أُصبح عجوزًا، سأقضي ساعات على هذا النّحو مُصغية لكلّ نغمة، لكلِّ صوت، لكلِّ إيقاع. نعم، سأغلق عينيَّ وأترك نفسي تغوص ذهنيًّا في عالم الرقص، والنَّشوة.

سأستعيدُ الحركة تلو الأخرى، والنقلةَ تلو الأخرى، وسيتّحدُّ جسدي مُجدَّدًا مع الإيقاع، مع النَّغمة، مُنسجمًا مع الموسيقى. عندما أصبح عجوزًا إذا قُدِّر لي أن أعيش طويلًا، سأحتفظُ بهذه الذِّكريات؛ ذكرى الرقص، إيقاع النَّغمات التي تهتزُّ في أعماقي، وتمايل خصري بانسياب.

وجدتُها نائمةً على كرسيِّها، فجلستُ بجانبها بضع دقائقَ. لاحظتُ تشنُّجًا خفيفًا يظهر على وجهها، فتبيَّنتُ أنها بدأت تشعر بوجودي، ثم فتحتْ عينيها. خاطبتها:

- صباح الخير يا ميشك، كيفُ حالك؟

- أنت تعلمين أنَّني لم أكن نائمةً.

- لا تقلقي يا ميشك، أعلمُ أنَّك كُنت في انتظاري. هل تشعرين أنَّك بخير؟

- نعم أنا بخير، كيف تسير الأمور معك بشأن....الصَّغير؟

- زرتُ الطَّبيب وطمأنني بأنَّ كلّ شيء على ما يُرام.

- هذا جيِّد، وماذا عن الإعلان؟

- لا شيء جديد حتى الآن يا ميشك، أنا آسفة، قد أعدتُ نشر الإعلان يوم الثلاثاء الماضي، ولم يصلني أيَّ خبر لحدِّ السَّاعة.

فجأةً، علا الحزنُ وجه ميشكا. قالت:

- أنت تعلمين... أنّني كُنت أرغبُ....كثيرا...

- هل أنت مُتأكِّدة تمامًا؟

- نعم.

- سأفكِّر إذن في إيجاد حلٍ آخرَ.

استسلمتْ إلى الصَّمت ثواني، مُستغرقةً في التَّفكير، ثم قامت بتجاوز خيبتها، كما لو كانت مجرَّد فكرةٍ سيِّئةٍ عابرةٍ. خاطبتني:

- هل أخبرتك أنّهم اقترحوا عليَّ مُشاركتهم لُعبة *الفريدج*؟[1]

- لا، لم تخبريني بعدُ. ومن هؤلاء؟

- النساد[2].

- أي نساء؟

- الشابَّات اللواتي يتجمَّعنَ دائمًا في الصَّالة الكبيرة بالأسفل طوال فترة الظهر، حتّى اللّواتي يذهبن إلى صالة العناية بالجسد.

---

(1) بدل أن تقول bridge لعبة الورق المعروفة قالت fridge . تم اعتماد الفريدج.

(2) بدل ان تقول femmes التي تعني النساء نطقتها هكذا femen تم اعتماد النساد.

- صحيح يبدون في حالة جيِّدةٍ، لكنهنَّ لسنَ صغيراتٍ جدًّا، أنت تعلمين ذلك.

- هل ترين السيِّدة الجالسة على الكرسي *المتحري*[1]؟ إنها زعيمة المجموعة، تلك التي ترتدي رداء الحمّام.

- نعم، أراها؟ إذن، هل وافقت على مشاركتها لُعبة البريدج (لعبة ورق)؟

- ليس بعد.

- لماذا لا ترغبين في ذلك؟

- أخشى أن أُخطئ في اللَّعب.

- لكن لا يا ميشك، أنت تعرفين القواعد، كما أنّه لا يوجد سببٌ يمنعك من الفوز.

- إذا لم يكن الأمر سيئًا.

- ماذا؟

- قد سقط السيِّد تردیان في غرفته وكُسر عظمه، وهو الآن يقبعُ في ....في...

(تبحث عن الكلمة ولا تعثر عليها)

- في المستشفى؟

- نعم، آمل أن يعود قريبًا.

---

(1) بدل أن تقول roulant التي تعني المتحرك، قالت croulant . تم اعتماد المتحري.

- بالطبع يا ميشك، سيعود بمجرِّد أن تتحسَّن حالته.
- لعلّك تعلمين أنَّ هُناك أمرًا خطيرًا يحدث هنا، إنَّه خطير جدًّا، يحدث في حمَّامات الطابق السفلي، عليك أن تذهبي لتري بنفسك. أنا توقَّفتُ عن النزول إليها نهائيًّا، لأنّني بتُّ أعرف جيِّدًا هدفهم.
- عن ماذا تتحدَّثين يا ميشك؟ هل تقصدين حمَّامات الطابق الأرضي؟
- نعم، بالقرب من...من *جحرة*[1] الطَّعام، ستُلاحظين فوق باب الغرفة...نوعًا من...شيء أبيض....يُطلِقُ «شششت»، يُصدِر ذلك الصَّوت كُلّما دخل أحدٌ الغُرفة. سأُخبِرك بالحقيقة.. أظنُّ أنّهم يُطلقون علينا الغاز.
- لا يا ميشك، هذا مُجرَّد صوت البخَّاخ المُعطِّر.
- الجو هناك ليس *فضيغا*[2] وليس العطر ما سيُحسِّن الجوَّ. الـمُهم أثناء مغادرتك يُمكنك الذَّهاب إلى هناك والتحقُّق بنفسك.
- سأتحقَّق منها إن كانت هذه رغبتك، لكنَّك تقلقين بلا داعٍ. عليك أن تعلمي أنَّك بأمان هنا.
- هذا رأيك يا ماري.

---

(1) بدل أن تقول table قالت stable. تم اعتماد جحرة.

(2) بدل أن تقول terrible التي تعني فظيعا، قالت torrible . تم اعتماد فضيغا.

لم تكن ميشكا، أثناء وقوفها أمام المديرة القاسية، مُتأكِّدة من أنَّ تعابير هذه المرأة وصلابتها قد تكون مجرَّد كابوس. ولكنَّ المديرة خاطبتها بنبرةٍ حازمةٍ ونفاد صبر:

-هل يُمكن أن ترفعي يدك يا سيِّدة سالد؟

استجابت ميشكا.

-إلى الأعلى!

ترفعُ ميشكا ذراعيها نحو الأعلى، تقول المديرة:

-لقد فقدت الكثير من مُرونتك منذ وصولك يا سيِّدة سالد بشكل هائل. هذا أمر شائع (يتعيَّن عليَّ أن أُسرَّ لك بذلك)، يحدث هذا التراجع الكبير بمجرِّد التحاق المقيمين بالمؤسَّسة. ولكن لا تعتقدي أنّنا سنتعاطف معك، فليس لدينا وقت لهذا، فقائمة الانتظار طويلة كما تعلمين، لذا لنلخِّص التعليمات: ستفقدين الاستقلالية في الاستحمام، وارتداء الملابس...

-آه، أنا مُتعوِّدة على ارتداء ملابسي بمفردي.

-ليس لوقتٍ طويلٍ. انتظري حتّى أُكمل اللائحة: ستفقدين الاستقلاليّة في الاستحمام، وارتداءِ الملابس، وتناولِ الطعام...

-آه لا، عُذرا، لكنِّني أتناول طعامي جيّدًا بمفردي.

صارت لغة ميشكا مُضطربة أكثر: حُبسة كلاميّة، خطأٌ في تسمية الكلمات، فُقدان الكلمات، قد اكتمل المشهد. قالت:

- أنت تعلمين أنّه في أحلامي لا تخونني الكلمات، بل أتحدّث بطريقة سلِسَةٍ.

- هذا ما تظنّينه، أو ربّما ما تُريدين منّا تصديقه، ولكن ما الذي يُثبت ذلك؟

- حسنًا، الآن على سبيل المثال....أنا أتحدَّثُ بطريقة جيّدة، أليس كذلك؟

تنخرطُ المديرة في ضحكةٍ شيطانيّةٍ، ثم تتوقّفُ فجأةً. تُجيب:

- لن نُمضي الليلة هُنا. ما هو جدولك الزَّمني للمراحل القادمة؟

ردَّت ميشكا في ذهول وارتباك:

- لا أدري....

- هل تنوينَ البقاء طويلًا في مؤسَّستنا؟

- ليس لفترة طويلة، ولكن لا يسعني المغادرةُ هكذا فأنا أنتظرُ بعض الأخبار. أظنُّ أنك تفهمينَ ذلك؟

- في هذه الحالة، عليكِ بذلُ المزيد من الجهد. أوّلًا، عليك ترتيب سريرك بشكل لائق، ليس كما يفعلُ الـمُراهقون. ثانيًا، عليك المشاركة في التمارين التي يقترحها السيِّد ميلو، والتي ترفضينها باستمرار. عليكِ أن تكوني مُتعاونة.

- هذا غير صحيح، فأنا أبذلُ جهدًا كبيرًا.

- لكنّه غير كافٍ. ثالثًا: الالتزام بموعد حظر التجوُّل، رابعًا: إخراج زجاجة الويكسي من خزانتك.

- آه، ...كنتم على علمٍ؟

- أعلمُ كلّ شيء يا سيِّدة سالد، فالإدارة النَّاجحة لمؤسّسة رعاية المسنين تعتمدُ على نظام معلوماتي دقيق. والآن كيف ستُدافعين عن نفسك؟

- أعتذرُ، فلم يكن في نيّتي إزعاجكِ على الإطلاق. لكن ألا ترين أنّه من الضروري أن نحتفظ ببعض الأمور لأنفُسنا؟ أتفهمين ذلك؟ لكي نشعر أنَّنا ما زلنا على قيدِ الحياة، يجبُ أن تُتاح لنا فرصةُ القيامِ ببعض الأشياء بمُفردنا، حتى لو كانت مُخالفة للقواعد، وأن نتمكَّن من إغلاق باب غرفتنا عندما نحتاج إلى بعض الهُدوء. هل تفهمين؟ الأمر ليس موجّهًا ضدَّكِ يا سيِّدة...

- روز بيف.

- ليس ضدَّكِ يا سيِّدة روز بيف، لكن كلُّ ما نحتاجه هو القليل من الحُرِّية، وإلا فما الجدوى من كلّ هذا؟

- هذا هو السّؤال الحقيقي يا سيِّدة سالد! ما الجدوى؟

قالت المديرة كلماتها، ثمّ رحلتْ، وصدى خطواتها يُسمع في الممرِّ.

جيروم

في غضون أسابيع قليلة، ازداد نطق ميشكا بطءا وتلعثمًا، تتوقُّف أحيانًا في منتصف الجمل، ضائعةً تمامًا، أو تتخلَّى عن الكلمة المفقودة وتنتقل مباشرةً إلى التَّالية. أُحاول أن أتتبَّع مسار أفكارها.

أعلم أنّني هُزمت، وقد رأيتُ هذه الأرض القاحلة. أجهلُ سبب الهزيمة، لكنَّني أشعر بثقلها. كانت المعركة خطِرة، لكن لا يمكنني الاستسلام أبدًا، وإلاّ فإنَّ السُّقوط سيكون أسرَعَ... سرعة سقوط حرّ.

يجبُ أن أقاوم، أتتبَّعها كلمةً بكلمةٍ، خطوةً بعد خطوةٍ، دون أن أتنازل عن حرف واحد، أو مقطع واحد، لأنَّه من دون اللُّغة، ماذا يبقى؟

لقد أتممنا عشر دقائق من التَّمارين.

استجابت لها ميشكا بانصياع ورضى، لكنَّها بدت وكأنَّها بلغت حدَّ التشبُّع. سألتها:

- هل تُريدين أن نتوقَّف يا ميشكا؟

- لم تعد هناك فائدةٌ تُرجى.

- على العكس، هناك فائدة، أعدك بذلك.

التزمتْ الصَّمت لعدة ثوانٍ. الآن بتُّ أعرف جيّدًا صمتها، وأدرك أنه يسبق غالبًا ذكرى أو اعترافًا.

- إذا لم يكن ذلك مُحزنًا، أنت تعلم...أنا أُفكِّر في الموضوع كثيرًا...وخاصَّة في اللَّيل.. بسبب الإعلان في الصحيفة. يبدو أنّه لا جواب في الأفق. أُفكِّر فيهم على الدَّوام... هل يُمكن تخيُّل ثلاث سنوات قضيتها معهم...من دون أن يقولوا شيئًا...إذا حدث شيء، وكان الوضع خطيرًا.... ربما دفعهم إلى الرحيل.....هم أيضًا... الخطر أحدَقَ بالجميع... أذكر...ساقية صغيرة ...كنّا نذهبُ إليها...فيها ماء...هذا كلّ ما أتذكَّره.... رُفقة الكلب....ما زال لديَّ بعض...مثل هذه...تلك....واضحة جدًّا....كُنتُ أتمنَّى...كثيرًا...أن أقول لهم....إذا لم يكن هذا محزنًا...

- أنا آسف يا ميشكا، لا أستطيع مجاراة حديثك جيدًا. هل تتحدَّثين عن والديك؟

- لا، والديَّ...هُما...في الدخان.

- هل تمَّ حرقهم؟

- أقوى من ذلك.

حدقتُ إليها ثواني وكان ذقنها يرتجف، ثم قلتُ:

- هل عرفتهما؟

- ليس طويلًا.

- في أي سنة وُلدت يا ميشكا؟

- 1935.

- هل تمّ ترحيلُ والديك؟

أومأتْ برأسها، وارتسمَ حُزن قاسٍ على وجهها. لم تعد هناك أي كلمات في متناولها.

- هل عادوا؟

هزّت رأسها نفيًا، ثمّ قامت واتّجهت نحو الحمام. لم تأخذ عُكّازها، فهي تعرف الغرفة عن ظهر قلب. اعتمدت أثناء سيرها على يدها اليمنى. لم أقل شيئًا، فقط انتظرت. سمعتُ صوت المياه تتدفّق. بعد بضع دقائق خرجت وجلست مرة أخرى، ثم ابتسمت لي.

- قد خفّت زياراتها بسبب حملها.

- ماري؟

- أخبرها الطبيب بأنّ عليها تجنّب *التنقدات*[1].

- ربما تُعاني من تقلُّصات، ويجب ألا تُعرِّض الجنين للخطر. لحُسن الحظّ أنّ السيِّدة دانفيل تزورك بين الحين والآخر.

- نعم، ثم هناك أيضًا أرماند، تلك المحبَّبة إلى قلبي، تجلسُ في المطعم إلى *جاني*[2].

---

(1) بدل أن تقول deplacements التي تعني التنقلات، قالت dépassements . تم اعتماد التنقدات.

(2) بدل أن تقول À côté التي تعني إلى جانبي، قالت en côte . تم اعتماد إل جاني.

- آه نعم، تبدو تلك السيِّدة مُفعمةً بالحيويّة.

- هي تشارك في جميع ***الأنشطة***[1]، ولكن أنا ...أنا...جِدُّ.

- صحيح هي تشارك كثيرًا في الأنشطة. بينما أنت يا ميشكا ستُصبحين جَدَّة؟

- نعم، لئن كان أمرًا قابلًا للتَّصديق، فإنّه قد يبدو غريبا...لا أدري كيف أشرحُ لك...هناك ...نوع من... يُشبه الدائرة، أليسَ كذلك؟ أو ربّما...أو... (تُشير بحركة من يديها تدلُّ على دائرة أو مجموعة)... التي تتشكَّل... ***شيبا فشيبا***[2]. هل تفهم؟

- أخبريني المزيد.

- هي...مُتشابكة، تُكمِّل الواحدة الأخرى، وت.....تُشبه، مثل...المر..المربك...المر...

- الـمِربكة (لعبة)؟

- نعم تمامًا، هذا يمدُّني بطاقة في الوقت المناسب، عندما يكون من الصَّعب إثبات شيء....لأنَّ كل شيء أصبح ضبابيًا، هل تفهم؟

- أعتقد نعم.

- وماري، هل ***قافلتها***[3]؟

- قابلتها؟

---

(1) بدل أن تقول activité التي تعني النشاط قالت captivites. تم اعتماد الأنشطة.

(2) بدل أن تقول peu a peu التي تعني شيئا فشيئا قالت feu a feu تم اعتماد شيبا فشيبا.

(3) بدل أن تقول rencontrée التي تعني قابل قالت Remarque . تم اعتماد قافلتها.

- نعم.

- لا، لم ألتقِ بها. لأنَّ حضورها قليل خلال أيام الأسبوع، وأنا، كما سبق وأخبرتك، لا أزور المكان أبدًا في عطلة نهاية الأسبوع.

- هل تعلم أنّها كانت تعيش...في البناية نفسها التي أعيش فيها، عندما كانت...صغيرةً؟

- نعم، ميشكا، أخبرتني أكثر من مرَّة القصَّة منذ أن وطئت قدماك المكان.

- هل أخبرتك؟

- نعم، في أولى جلساتنا، أخبرتِني عن ماري، وشرحتِ لي أنَّها كانت فتاةً صغيرةً تعيش في الشّقة فوق شقتك، وكنتِ تهتمين بها كثيرًا. كما أخبرتِني أيضًا عن السيِّدة دانفيل، حارسة المبنى، التي كانت تزورك بانتظام.

- نعم، اعتادت أن تزورني وتحمل معها عُلبة الشّوكولا. هي لطي...*لطيمة*[1]. هل تعلم أنها ...تَتّ...كلَّ يوم، كلَّ صباح سواء أكان الجوُّ مُمطرًا أم *مُثلزا*[2]، كلَّ صباح قبل أن تبدأ *يوبها*[3].

- تقصدين أنّها كانت تتَّصل بكِ؟

---

(1) بدل أن تقول gentille التي تعني لطيفة قالت chantille. تم اعتماد لطيمة.

(2) بدل أن تقول neige التي تعني تثلج، قالت beige . تم اعتماد مثلزا.

(3) بدل أن تقول journé التي تعني اليوم، قالت fournée. تم اعتماد يوبها.

-نعم، بالضبط. كانت تتَّصل منذ أن كُنتُ أُقيم في بيتي، كلّ يوم كانت تتَّصل اتّصالًا قصيرًا للاطمئنان عليَّ. هل تستوعب ذلك؟

-نعم، إنَّه تصرُّف لطيف جدًّا. هل ما زالتْ تعمل في المبنى؟

-لا، *تقاعست*[1]، ورحلت... إلى الخارج، حيثُ الطَّبيعة الجميلة. كانت ماري تزورها أيضًا عندما لا أكون في حالة جيِّدة، لكنّها كانت تأتي إليَّ بشكل خاصّ.

-وماذا عن والديْ ماري؟

-لا نعرف شيئًا عن الأب. أمّا والدتها فكانت... شابةً... حزينةً... تُمضي أحيانًا يومها بأكمله مُنطويةً على نفسها، لا تُغادر السَّرير، تنامُ طوال الوقت. تُوصد الأبواب، وتُسدل الأغطية، وتُغمض عينيها. أحيانًا كانت ترحلُ دون أن تُخبر أحدًا، في البداية تغيبُ في اللَّيل فقط، ثمّ صارت تغيب لأيَّام.

-هل كانت تُغادر منزلها؟

-نعم، بالضَّبط.

كُنتُ أشعر أنَّ هذه الذِّكريات تُؤلمها، لذلك نادرًا ما كانت تتحدَّث عن الماضي. أردفت ميشكا:

-كُنت أرى الصَّغيرة في المبنى مع والدتها، أو *وحيدة*[2]، تلعبُ.... مع دمى أو أشياء بلاستيكيّة. في يوم من الأيّام

(1) بدل أن تقول retraite التي تعني تقاعد، قالت requête. تم اعتماد تقاعست.

(2) بدل أن تقول solitaire التي تعني وحيدة قالت solifère، تم اعتماد وحيذة.

الباردة جدًّا خرجتُ إلى الحديقة ...رأيتها رفقة والدتها...

- تتجوَّلان؟

- نعم، ولكنَّ الصَّغيرة لم تكن ترتدي ***معطلا***[1]

- معطفًا؟

- نعم، لم تكن ترتدي واحدًا، بينما ظلَّت والدتها تتحدّثُ، وتتحدَّثُ، وكانت ***لطيمة***[2] معها. بدت كما لو أنهَّا...لا تكترثُ بالبرد لذلك أعطيتُ ***وشاهي***[3] لماري، وقُلت لها: تعالي متى شئت.

- هل تعرّفتْ إليك؟

- نعم، بالطبع، كنتُ أراها كثيرا في ***السلالد***[4].

- وهل قامت بزيارتك؟

- نعم، بعد أيَّام قليلة دقَّتْ الباب. وقد كنتُ ...نعم.... ولكن لم يكن بوسعي فعل شيء؟ اكتفتْ بتناول العشاء ثم غادرت، واعتادت على العودة كثيرا...لتنام، وأحيانًا كانت تبقى في منزلي طوال الوقت.

- هل أبلغتِ الجهات الاجتماعيّة؟

- لا، فكَّرتُ في البداية، لكنِّني أيضًا فكَّرتُ في تلك الكلمة...

---

(1) بدل أن تقول manteau التي تعني معطفا، قالت manchot تم اعتماد معطلا.

(2) بدل أن تقول gentille التي تعني لطيفة قالت chantille. تم اعتماد لطيمة.

(3) بدل أن تقول chale التي تعني الوشاح، قالت chantail، تم اعتماد وشاهي

(4) بدل أن تقول escalier التي تعني السلالم قالت escarpe، تم اعتماد السلالد.

الكلمة التي تُثير الخوف.

- أيَّ كلمة يا ميشكا؟

- تلك الكلمة التي تجمع بين هذه الكلمات: ***بلّغ..أبلغَ..بالغ***[1].

- التَّبليغ؟

- نعم التَّبليغ. لم يكن الأمر ***ممكلا***[2]، ليس كما تظنّ. إذ لم أتحلَّ ***بالشماعة***[3] . بدا لي أنَّ والدتها كانت تحاول...الخروج من تلك الحالة...كما لو كانت...أترى؟ وأحيانًا كانت تأتي لتنام عندي. في بعض الأيام، كانت تمكثُ لفترات طويلة وتهتمّ بالطفلة.

- واليوم؟

- قد ماتت حين بلغتْ ماري سنَّ الرُّشد.

- سنّ الرُّشد؟

- نعم بالضبط، بعد أن تعرَّضت إلى .... (تبحث عن كلمة ولكنها لا تعثر عليها) بالسيَّارة.

- حادث؟

- نعم.

- وتولّيتِ أنت الاهتمام بها حينها؟

---

(1) أرادت الإشارة إلى denonce التي تعني التبليغ انطلاقا من تلك الكلمات: en fer....en vert....en verbe. تم اعتماد بلغ أبلغ بالغ.

(2) بدل أن تقول possible التي تعني ممكنا، قالت fossible. تم اعتماد ممكلا.

(3) بدل أن تقول courage التي تعني الشجاعة قالت Coeur، تم اعتماد الشماعة.

لحظتها ساد الصَّمتُ بيننا، قلتُ:

- هذه ذكريات مؤلمة لك يا ميشكا، أليس كذلك؟

- نعم، ولكن الآن...الأمر يبدو مختلفًا...هل ترى؟ كلّ شيء أصبح ...مُختلفًا.

- نعم، أفهم، الآن ماري حامل..وهي بخير، وهذا أمر رائع.. أليس كذلك؟

- لكنني لن أتمكَّن من الكلام معه؟

- من؟

- الطفل. كنتُ أُريد أن أحكي له القصص كما...كما....كما تفعلُ...أوه لقد قُلتَها من قبل.

- الجدَّة؟

- نعم هذه هي.

- لماذا لا يمكنك أن تحكي له مثل الجدَّة؟

- ينتابني شعور بأنَّ الكثير من الأشياء تفرُّ مني. أنا**متععبب**[1]، وماذا عنك؟

- أنا بخير يا ميشكا، لستُ متعبًا. أمّا أنتِ فهذا طبيعيّ. لقد تحدَّثنا كثيرًا اليوم. لكنِّني ألاحظ أنَّكِ حزينةٌ هذه الأيّام، أليس كذلك؟

---

(1) بدل أن تقول crevee التي تعني متعب قالت grevee. تم اعتماد متتعبب

- أتعرف عاملة *النظارة*[1] قد جلبتْ لي بعض *الشوكك*...

- الشَّراب؟

- لا.

جمعت بين السبَّابة والإبهام ونظرت إليَّ بابتسامةٍ خفيفةٍ من خلال الفتحة التي تشكَّلت بينهما، قُلت:

- الشوكولا؟

- لا، هي ليست بعيدةً عن كلمة الشُّوكولا.

- حلوى *الشُّوكات*؟

- نعم، بالضَّبط! هل تُريدين واحدةً؟

- قطعة واحدة لا تُرفض. سنتوقَّفُ هنا اليوم، حسنًا؟

- وأنتَ هل لديك أطفال؟

- لا يا ميشكا، كُنتُ أتمنَّى ذلك ولكنِّني طلَّقتُ قبل أن يحصل.

- حقًا؟ هيَّا أخبرني عن جديدك؟

لا أستطيعُ منع نفسي من الضَّحك.

- أنت فضوليّة جدًّا يا ميشكا، لا، لا شيء جديد في الحقيقة.

- ولكن ماذا عن والدك...

- لقد مرّ وقت طويل.

نتبادل النَّظرات بضع ثوان وأبتسمُ لها.

---

(1) بدل أن تقول menage، االتي تعني النظافة قالت méninge، تم اعتماد النظارة.

-خمَّنتُ أنّه ربّما يجبُ عليك... الكتابة... سيكون ذلك... *التفاوة*[1].... التفاتة طيّبة.

-سأفكِّر في الأمر يا ميشكا، ولكن لماذا شَغَلَتْ قصَّتي مع والدي بالك كثيرًا؟

-إنّه أنت.

-كيف يعني أنا.

-أنت الذي *كُسِلَ*[2] قلبك.

- لا تقلقي، لا تُفكِّري في ذلك. وبالنسبة إلى جُرعات الأدوية، هل انتظمَ برنامجك؟

-نعم، وبشكل جيِّد، لقد قاموا ...بتقديم...دواء العاشرة مساءً. كان ذلك جيّدًا.

-حسنًا. سأتركك تسترخين قليلًا...أراك يوم الخميس.

بُحكم مهنتي أخصَّائيّا في النُّطق، أتعامل مع الكلمات ومع الصَّمت، مع ما يُقال وما لا يُقال، مع العار، والأسرار، والنَّدم. أتعاملُ مع الغياب، ومع الذكريات المفقودة، وتلك التي تعود إلى الظُّهور عند ذكر اسم، أو عند رؤية صورة، أو استعادة رائحة. أعملُ مع آلام الأمس وآلام اليوم، مع الاعترافات، ومع الخوف من الموت.

---

(1) بدل أن تقول geste التي تعني موقف او حركة او التفاتة قالت leste. تم اعتماد التفاوة.

(2) بدل أن تقول casser الذي يعني كسر، قالت fracasse. تم اعتماد كسل.

كلّ ذلك جزء من مهنتي. لكن ما يُحيِّرني حقًّا، وما لا يزال يدهشني حتى اليوم، بعد أكثر من عشر سنوات من الخبرة، هو دوامُ آلام الطفولة. إنّها وسمٌ عميقٌ، مُلتهبٌ، لا يندثر رغم مرور السِّنين.

أنظر إلى كبار السنِّ، يحملون على أكتافهم سبعين، ثمانين، تسعين عامًا، ومع ذلك، يروون لي ذكرياتهم البعيدة، يتحدَّثون عن عصورٍ قديمةٍ، عن زمن الأجداد، عن آبائهم الذين رحلوا منذ خمسة عشر، عشرين، ثلاثين عامًا. ومع ذلك، فإن ألم الطفل الذي كانوا عليه لا يزال حاضرًا كما هو، يُقرأ في ملامحهم، يُسمع صداه في أصواتهم، أراه نابضًا في أجسادهم، في عروقهم، يتجدَّدُ باستمرار، كأنَّه يدور في دائرةٍ مغلقة لا نهاية لها.

عندما وصلتُ ذلك اليوم، وجدتها في حالة اضطرابٍ شديدٍ. كانت تقفُ وسط الغرفة، يكسو الغضبُ وجهها، وتُوشك على البكاء. كانت الفوضى تعمّ غرفتها على غير عادتها، كما لو أنّها بدأت بتحريك الأثاث، ثمّ تراجعت قبل أن تُكمل. طرقتُ الباب بلطف، ثمّ دخلتُ بهدوء. بادرْتُها:

- صباح الخير يا ميشك، كيف حالك؟

- لا شيء.

- ما بك، تبدين غاضبةً؟

- إنها....تلك المرأة المتسلِّطة، *تقدر*[1] هكذا وتدخل من دون ...أن *تدك*[2] إنّها تريدُ دائما أن ....*نأكر*[3] كلّ شيء.

- المساعِدة؟

- نعم.

- يجب عليك التحدّث معها يا ميشكا. أمّا التَّخزين فإن لم تأخذ طلبك على محمل الجدِّ، فعليك مُفاتحة المديرة.

جلستْ على الأريكة..قالت:

- لكنّني لم أعد أقوى على الكلام، وهي لا تفهم. حتَّى عندما أكون في....في ذلك..هي... تأتي بسرعة هكذا.

- هل تُريدين مني مفاتحتها في الموضوع؟

- لا، لا، أبدا، سوف تستشيطُ غضبًا.

تُراقبني مليًّا، ثمّ تقول:

- تبدو عليك ملامحُ الحزن.

بالفعل، يشبه كبار السِّن الأطفال في قدرتهم على ملاحظة أدقِّ التَّفاصيل، فلا يمكن إخفاء شيء عنهم. أجبتها:

- أترين ذلك حقًّا؟ لا، لا داعي للقلق، كلُّ شيء على ما يُرام، أؤكّد لك.

---

(1) بدل أن تقول arriver التي تعني تقدم، تقول ravive . تم اعتماد تقدر.

(2) بدل أن تقول frapper التي تعني تدق قالت frappir تم اعتماد تدك.

(3) بدل أن تقول manger التي تعني يأكل قالت ranger، تم اعتماد نأكر

- قد أضحى الكلام ....أمرًا صعععبب، ومتعبا.

- أنا أفهمك يا ميشكا.

- في أحد الأيام.. قُمتُ بـ... (تُحرِّك يديها بشكل غريب مُشيرةً إلى رأسها) كُنتُ أرغب في إخبارك، لكن مرَّ وقت طويل على ذلك.

- أكان حلمًا؟

- نعم، ولكنّه كان سيِّئًا للغاية.

- كان كابوسًا إذن؟

- نعم، مع تلك السيِّدة الصارمة صرامة العسكر، كانت تنوي التخلُّص منّي.

- ميشكا، تبدين قلقة في الآونة الأخيرة. هل تحدَّثتِ مع المُساعدين بشأن ذلك؟

- لا، لا أستطيع....لا يجب أن نُظهر هشاشتنا خصوصًا أمام *العسكريين*[1].

تدور قليلًا في غرفتها، ثمّ تعود إليّ، وتُواصل:

- أردتُ إخبارك بشيء...

- نعم، تفضَّلي.

- الأمر لم يعد كما كان من قبل، كما تعلم. لقد تدهور كثيرا...ثم

(1) بدل أن تقول auxiliaire التي تعني المساعدين في الخدمة، قالت militaire، تم اعتماد العسكريين.

إنني بتُّ أنسى ال...فتبدو الأمور كلّها مُشوَّشة...ضائعة. هذا يجعلني...*خائبة*[1].

- هل يُخيفك هذا؟

- نعم، ولكنَّه أيضا يُشعرني بالبرودة.

- هل زارتك ماري مؤخّرًا؟

- لا، قد انتهى الأمر، هي ..(تُشير إلى وضعية أُفقيَّة بيدها).. هذا ما طلبه الطبيب.

- هل يجبُ أن تبقى مُستلقيةً؟

- نعم.

- إلى متى؟

- طوال الوقت.

- حتى الولادة؟

- نعم.

- آه، قد يكون الأمر مزعجًا، لكنَّه لمصلحة الجنين. أنا متأكّد من أنّها ستتواصلُ معك كثيرًا وستُبقيك على اطِّلاع دائم.

- نعم، ولكنّني لا أستطيع التَّواصل معها.

- عبر الهاتف؟

- نعم، إنّه بعيد جدًّا.

---

(1) بدل أن تقول effrayé التي تعني يخاف، قالت fraie، تم اعتماد خائبة.

- أتفهَّم ذلك، لكنّه وضع مؤقَّت. قريبًا ستتمكَّن ماري من زيارتك، ربّما حتّى قبل الولادة. هل ترغبين في استئناف التَّمرين قليلًا؟

- *مرافقة*.

- اليوم، أحضرتُ معي بعض الأدوات لتمرين جديد. عليكِ معرفةُ وظيفة كلّ واحدة منها، ثمّ تشرحين لي كيفية استخدامها. هل هذا واضح؟

- *مرافقة*.

كانت تتابع بفضول الأدوات الّتي أخرجتها من حقيبتي. من بين تلك الأدوات، كان هناك دفتر ملاحظات، وضعتُهُ أمامها بهدوء. قالت:

- آه، هذا من أجل... *الرسائب*[1]...الرسائل.

- ممتاز، ولكن ماذا بعد؟

- إنّه...*دفتم*[2].

- نعم، إنّه دفتر ملاحظات يُستخدم من أجل ....

قامت ميشكا بحركة تُشير إلى الكتابة، لكنَّها لم تجد الكلمة المناسبة، فتدخَّلتُ وأكملتها لها.

- لكتابة الرسائل.

---

(1) بدل أن تقول lettres التي تعني الرسائل قالت mètres. تم اعتماد الرسائب.

(2) بدل أن تقول Bloc التي تعني دفتر قالت floc. وقد تمّ اعتماد دفتم.

- نعم.

- إذن اِشرحي لي كيف نقوم بذلك.

- نقوم بإمساك ال...ثمّ نفتحُ ال.....(وتُقلِّد طريقة فتح قلم) وهكذا.

- رائع! ركِّزي معي، ماذا أفعل قبل أن أبدأ الكتابة؟

- أنت تنزلقُ.....على.....السَّطر.

- نعم، تمامًا! أضعُ دليل السُّطور أسفل الورقة لأُحافظ على استقامة الكتابة.

- تمامًا.

- وعندما ننتهي من كتابة الرسالة. ماذا نفعل بعدها؟

- نطويها....داخلها.

- داخل ماذا؟

- داخل ال...ال.... *الظرب*[1].

- الظرف، ثمّ تذهب إلى؟

- البريد.

- جيّد جدًّا.

- وأنت؟

- ماذا، أنا؟

---

(1) بدل أن تقول enveloppe التي تعني ظرف الرسائل تقول tilope ...l'en. تم اعتماد الظرب.

- هل كتبتَ رسالتك؟

- أيَّ رسالة يا ميشكا؟

- إلى والدك.

- أقلّ ما يُقال عنك، يا ميشكا، إنَّك لا تستسلمين بسهولة!

لا تستطيع أن تُخفي ابتسامةً صغيرةً أضاءت وجهها، ابتسمتُ بدوري:

- لا يا ميشكا، لم أكتب أيَّ رسالة بعد. ما رأيك أن نتدرَّب اليوم على بعض الكلمات؟ وأنتِ أيضًا، أعتقدُ أنه مرَّ وقت طويل منذ آخر مرَّة استخدمتِ فيها دفتر الملاحظات. يُمكنكِ كتابة بضع كلمات لماري، سيُسعدها ذلك كثيرًا، أليس كذلك؟

- نعم لكن..بواسطة...الذي...ليس هذا.

- لا تُريدين الكتابة بهذا القلم؟

- نعم، أريد ذلك الذي يُمحى.

- تعنين قلم الرَّصاص؟

- نعم.

- من حُسن الحظِّ أنّني أملك واحدًا.

بحثتُ في حقيبتي فوجدتُ قلمين أعطيتهما لها، قالت:

- وأريد أيضا ***ممحاد***[1]

- ممحاة؟

(1) بدل أن تقول gomme التي تعني ممحاة، قالت pomme. تم اعتماد ممحاد.

- نعم.

- آه، ليس عندي واحدة.

- أنا عندي. اِذهب وأُنظر في *الدرن*[1]

(تُشير بيدها إلى المنضدة الليليّة)

- في الدُرج؟

- نعم هو ذلك.

- هل تُريدين منّي إخراج الممحاة من درجك؟

- نعم، من الشَّيء المعدني.

اقتربتُ من المنضدة بينما تجهَّزت هي للجلوس على المكتب.

فتحتُ الدرج، فوجدتُ بداخله عُلبتين معدنيَّتين قديمتين، عليهما أثر الزمن، من ذلك النوع الذي يُفضِّله هواة التّحف. فتحتُ الأولى، فوقع بصري على نحو خمسين قرصًا أصفرَ صغيرًا. شعرتُ برجفة مباغتة كادت تُفقدني توازني، لكنّ ميشكا لم تلحظ ذلك. أغلقتُ العُلبة على عجل، وقلَّبتُ نظري نحو الثانية. كما توقَّعتُ، احتوت على مشابيك ورق، وعُلبة دبابيس، وممحاةً. التقطتُ الممحاة، ثمّ أغلقتُ العلبة برفق، وأعدتُ الدرج إلى مكانه.

كانت ميشكا غارقةً في محاولتها لكتابة بعض الكلمات، يدٌ تُمسك بالورقة، وأخرى تُمسك بالقلم بقوة عبر أصابع مرتجفة. لم أتمكَّن من التفوُّه بكلمة. كلّ تلك الحبوب في علبة... خمسون أو أكثر...

---

(1) بدل أن تقول tiroir التي تعني الدرج، قالت miroir تم اعتماد الدرن.

مُخبَّأة بعيدًا عن أعين المُعالجين! عندها، عادت إلى ذهني مُحادثة كُنتُ شاهدًا عليها قبل أسابيع قليلة. إذن، هذه هي الحبوب المنوِّمة!

على الورقة كَتبتْ ميشكا «عزيزتي ماري»

كانت تنتظر بينما يدها تحمل القلم،

نظرت إليّ بعينين تستجديان العون، كانت بحاجة إليَّ لتستكمل الكتابة، لكن ارتباكها كان واضحًا. بابتسامة مُشجِّعة وإيماءة من رأسي منحتها الطمأنينة، فشرعتْ في الكتابة. اقتربتُ منها، شعرتُ بتردُّد يجتاحني للحظة قبل أن أُبادرها:

- ميشكا، انظري إليّ.

رفعت رأسها كما لو كانت طفلةً تمَّ مُقاطعتها أثناء الإملاء.

- يبدو أنك لا تتناولين حبوب النوم؟

- حقًّا؟

أمام براءتها المصطنعة، انتابتني رغبةٌ شديدةٌ في ضمِّها بين ذراعيَّ. واصلتُ:

- أثناء بحثي عن ممحاتك، فتحتُ بالخطأ العلبة المعدنيَّة الأخرى. أنت تعلمين جيّدًا ما الذي وجدته فيها، أليس كذلك يا ميشكا؟

ترددتْ لوهلة... صرتُ أعرفها جيّدًا الآن. أحيانًا، يُخيَّل إليّ أنّني قادر حتّى على قراءة أفكارها. ردَّت:

- انتظر، سأُصارحك.... الأمر فقط... لأكون.... *حُرّرر*[1].
هل تفهم؟

- لكي تكوني حُرَّةً؟

- نعم، حُرَّةً، هذه هي. فقط يجبُ أن تعرف.. أنّه من *المنكن*[2] أن....نرحل. طالما الوقتُ لا يزال مناسبًا.

ظللنا صامتين لفترة طويلة، ثمّ همست:

- لن تُخبرهم، أليس كذلك؟

- سأفكِّر في الأمر يا ميشكا.

وقفت ميشكا في مُواجهة المديرة الصَّارمة، التي كانت تُحدِّق فيها بنظرةٍ يملؤها الازدراء.

- سيِّدة سالد، يُؤسفني إبلاغكِ أنّه قبل بضعة أيّام، تلقَّينا رسالة اتّهام تتحدَّث عن مجموعة من المخالفات التي تخصُّكِ تحديدًا. كما وَرَدَ فيها تفصيل لجميع الممتلكات الرَّسمية وغير الرَّسمية التي بحوزتكِ.

- حقًّا؟ ولكن من يُمكن أن يفعل شيئًا كهذا؟

- لا يهمُّ من يكون، فقد يكون جارًا، زائرًا، ممرضةً، أو حتى صديقتكِ غريس كيلي! وربما إحدى مُساعِدات الخدمة التي لَفَتَ انتباهها مروحتكِ أو جهاز الاستريو الخاصّ بكِ! هذه

---

(1) بدل أن تقول libre التي تعني حرة، قالت ...vibre تم اعتماد حرررر.

(2) بدل أن تقول possible التي تعني ممكن، قالت fossible. تم اعتماد المنكن.

هي طبيعة النفس البشريَّة، يا سيِّدة سالد، ولا أعتقد، بالنظر إلى أُصولكِ، أنّ هذا الأمر يفوتكِ. ألا تعتقدين أنَّ الحياة قد تغيَّرت؟ الناس باتوا مُستعدِّين لفعل أيّ شيءٍ من أجل قطعة أثاث... أو حتى غرفةٍ ذات إطلالةٍ جميلةٍ.

- ليس لديَّ الكثير من الأشياء كما تعلمين، قد بعتُ شقَّتي لدفع تكاليف إقامتي هنا، ولم يتبقَّ لي سوى خاتم واحد وجهاز الاستريو، ولا قيمة له.

- هذا ما يُردِّده الجميع، ثم نكتشفُ أنهم ينامون على كنز! لكن هذا ليس موضوعنا الآن. أعتقد أنَّكِ تُدركين تمامًا ما الذِّي يجبُ أن نتحدَّث عنه.

- هل هو بسبب الويسكي؟

- لا تدَّعي البراءة.

- لا أعلم.

- أه حقّا؟ هل أنت مُتأكِّدة؟ أنه لا يجبُ عليَّ أن أُنبِّه فورًا السُّلطات العليا «للتأمين على الشَّيخوخة والتخطيط للوفاة» بخصوص ما يُوجد في درج منضدتك يا سيِّدة سالد؟

ركنت ميشكا إلى الصَّمت بعد أن ضُبطت مُتلبِّسةً.

تحدَّثت المديرة إلى ميشكا بنبرةٍ قاسيةٍ:

- هل تعتقدين أنّه يُمكنك التراجع بهذه السهولة؟ تركُ منصبكِ ووظيفتكِ؟ هل تظنِّين أنَّكِ من يُقرِّر ذلك؟ لم أتوقَّع هذا أبدًا

من امرأة مثلك! لقد وظَّفناكِ لأنَّنا كُنَّا نُؤمن بأنَّكِ جديرة بمؤسَّستنا، وبأنَّكِ ستصمدين حتّى النهاية. هذا ما نتوقّعه من مُوظَّفينا: الإصرار، والمثابرة، والعزيمة. نحنُ نُكافحُ باستمرار ضدَّ التغيير المتكرِّر للموظَّفين، إنها مسألة ربحيّة. أنا أعرف تمامًا ما تُخطِّطين له، فلا تُحاولي خداعي. أعلمُ جيّدًا ما تُخفينه في درجكِ، وكيف تنوينَ استخدامه. ولهذا السَّبب تحتفظين بالويسكي... سيكون مزيجًا مثاليًا، أليس كذلك؟ إنَّ ما تفعلينه عار... هذا كل شيء.

- لكن لا، ربما...أو رُبَّما لا. لكنَّه ليس الوقت المناسب على كلّ حال.

- آه حقًا؟ ولماذا يجب عليَّ أن أُصدِّقك؟

- لأنَّني آمل..

- تأملين في ماذا؟

- أن أعثر عليهم لأتمكَّن من الرحيل.

- كان عليك التَّفكير في ذلك مُسبقًا!

- لكنّني لم أتمكَّن من ذلك.

- ما هي هذه القصة؟

- إنها مُعقَّدة وبسيطة في الوقت نفسه.

ثمّ بدأت ميشكا تسردُ قصَّتها، جالسةً في مكانها، تُحاول جاهدةً

ترتيب أفكارها. لم تعد تنظر إلى المديرة، بل بدتْ وكأنَّها تُخاطب نفسها، أو ربّما شخصًا لم يعد موجودًا.

-جاءت قريبة أمّي لاصطحابي، كُنتُ حينها في العاشرة من عمري، ولم أكن قد رأيتها من قبل. خلال الحرب تمكَّنتْ من اللُّجوء إلى أصدقاء في سويسرا، حيثُ كان كلّ شيء بحاجة إلى إعادة بناء فوق أنقاض الدمار. تبنَّتني تلك المرأة لأنّها لم تجد خيارًا آخرَ. عِشنا هناك، وأخبرتني أنَّ والديَّ تُوفِّيا في المحتشدات، ثم انتهى الأمر عند هذا الحدّ. لم تستطع الحديث أكثر من ذلك، كانت تتصرَّف وكأنَّ كلّ ما حدث لم يكن قد حدث أبدًا، ربما بسبب العار. أنت لا تعرفين معنى العار والحزن... إذ مات الجميع، وبقيت هي على قيد الحياة. وفي وقت لاحق، بحثتُ كثيرًا حتى تمكَّنتُ من العثور على أثر لهم، على ما مرُّوا به، وعلى المكان الذي بدؤوا منه رحلتهم، من مُحْتَشَدَيْ درانسي وأوشفيتس... لكن كانت هناك أيضا تلك الذكريات التي تعود باستمرار حتّى أصبحت تُلاحقني، ذكريات غير واضحةٍ، لا تتماشى مع ما سمعته من الآخرين؛ الوجوه المذهولة التي بدأت تتلاشى، النَّهر الّذي كنا نسبح فيه، الغابة الصغيرة المليئة بالأشواك خلف المنزل، الأحواض الكبيرة التي كان الغسيل يغمرها. كل تلك الصُّور تفتقر إلى أيِّ تفسير، وكأنَّها لم تحدث أبدًا. بدا الأمر وكأنّني كُنتُ أختلقُ قصَّة خياليّة أو أعيش حلمًا

مرَّ عليَّ. عندها فهمتُ أنَّ الأسئلة تُثير الألم دون أن تمنح إجابات، فآثرتُ الصَّمتَ.

أما تلك المرأة التي ربَّتني فقد فعلتُ ذلك بدافع الواجب. لم تكن تملكُ الكثير من المال، لكنَّها كانت تدفع تكاليف تعليمي. وعندما بلغتُ سنَّ الرُّشد، عادت إلى بولندا لتعيش هناك. كان الجميع قد ماتوا هناك أيضًا، لكنّها عادت إلى الأماكن التي نشأت فيها. زُرتها عدَّة مرات، وفي الزيارة الأخيرة، قبل وفاتها بقليل، أخبرتني أخيرًا عن الشَّابين، نيكول وهنري، اللَّذين خاطرا بحياتهما لإنقاذي. لم تكن مُتأكِّدةً تمامًا من الأسماء، لكنَّني شعرتُ أنَّ تلك الأسماء صارت تحملُ معنى خاصًا بداخلي. أما السَّنوات الثلاث التي قضّيتها هناك فلم تكن تعلم عنها الكثير، سوى أنني كُنتُ قريبةً منهما طوال الوقت، وأنّهما رَعَياني كابنتهما. وبعد وفاتها، حاولتُ البحث عنهما، لكنّني كُنتُ أجهل اسميهما بالكامل... هي أيضًا كانت قد نسيت.

كانت المديرة القاسية تنتقلُ بخطواتٍ واسعةٍ في الغرفة، وتنتظر أن تنتهي ميشكا من سرد قصَّتها التي بدت لها غير مهمَّة.

-لن نجعل منها قصَّة؟

-أنت لا تفهمين.

-أفهم تماما. أنت تشعرين أنَّك مدينةٌ لهم بالامتنان، وناكرةٌ للجميل، وشعورك هذا صادق.

- لا، الأمر ليس هكذا، هناك شيء أكبر من ذلك.

- على أيِّ حال، قد فات الأوان، كما أخبرتك فلن تكوني أوَّل من يُغادر وعليه ديون! ولكن لتكن الأمور واضحة: أنا من يُقرِّر موعد رحيلك، أنا فقط.

الشَّيخوخة هي درس في الفقد. ستجدُ نفسك، أسبوعًا بعد آخرَ، تُواجه عجزًا جديدًا، تراجعًا آخرَ، أو ضررًا إضافيًّا. لم تعد هناك مكاسبُ تُرجى، بل سلسلةٌ مُتواصلةٌ من التَّنازلات. سيأتي يومٌ تعجزُ فيه عن المشي أو الرَّكض، عن الانحناء أو النهوض، عن التمدُّد أو الالتفاف، لا جِهة تُسعفك، لا صباح يختلفُ عن المساء، لا شيء على الإطلاق.

ستتكيَّف مُرغمًا، مع فقدان الذَّاكرة، وضياع المعالم، واختفاء الكلمات، وتراجع التوازن، وتلاشي البصر، واختلال الإحساس بالوقت، واضطراب النوم، وضُعف السَّمع، وتآكل العقل، وضياع كل ما كُنت تملك، وما اكتسبته، وما ناضلتَ من أجله، وما ظننتَ أنَّك ستتمسَّك به إلى الأبد. ستُعيد ترتيب حياتك لتعيش مستغنيًا عن كلّ شيء، أو ربّما ستتعلَّم التّجاوز حين لا يعود هناك ما تخسره.

كانوا يتكبَّدون الخسائر شيئًا فشيئًا منذ اللّحظة التي وطئت أقدامهم هذا المكان، أو ربّما فقدوا كلّ شيء دفعةً واحدةً. ومع ذلك، كانوا يُدركون أنَّه رغم محاولاتهم المستمرَّة، وهذا الصراع اليومي الذي يبدأ من الصِّفر، ورغم ما يبدونه من إرادة، لم يكن هناك ما يُمكن أن يخسروه أكثر ممّا خسروه وهم في حالة الانتظار.

طرقتُ الباب، لكن لم يصلني أي ردٍّ. تطلّعتُ في الممرِّ، معتقدًا أنّها ربّما لم تعد بعدُ من الغداء. سألتُ الممرِّضات عن مكانها، فأكّدوا لي بأنَّها دخلت غرفتها.

عدتُ إلى الباب وطرقته مجدّدًا، وعندما لم أسمع إجابةً، دفعته برفقٍ وتقدَّمتُ بحذر. كانت جالسةً على كرسيّها، شاردةً، كما بدا وجهها أكثر نحولًا. التفتْت نحوي وابتسمت، لم أرها منذ وقت طويل، فقد كانت مريضةً واضطررنا إلى إلغاء عدَّة جلسات.

استغرقَ الأمر بضع ثوانٍ فقط لأُدرك أنَّني قد فقدتها. شعرتُ بألم مُوجعٍ في بطني. لم يكن بإمكان أيَّ ألم جسدي أن يكون أشدَّ وقعًا. لا أعرف لماذا يغمرني هذا الحزن، لكنني كدتُ أبكي. ثم تمالكتُ نفسي وقلتُ:

- مرحبًا ميشكا، كيف حالك؟

ابتسمت لي مرّة أخرى دون أن تردّ. واصلتُ:

- هل أنتِ متعبةٌ؟

هزَّت رأسها بحركةٍ خفيفةٍ.

- هل تُريدين أن أعود في وقت لاحق إذا كنت تُفضِّلين ذلك؟

نظرت إليَّ ولكنّها لم تردّ.

- هل تُريدين أن أبقى قليلًا؟

- نعم.

أخذتُ كُرسيًّا واقتربتُ منها، قالت:

-أردتُ إخبارك بأمرٍ...إنّه...

أومأت بحركة تعكس شيئًا يذوب أو يتلاشى أمامها، وكان لعجزها هذا وقع عميق في نفسي. أردفتْ:

-كلُّ شيء أصبح....

-لا يا ميشكا، لن يضيع شيء. إنَّها مجرَّد فترة إرهاق شديد، وهذا أمر طبيعي. لكن عليكِ أن ترتاحي، وحين تستعيدين قوَّتك، سنعود إلى العمل معًا.

-أوه لا، أنا...لكن لو أنّك فقط....

-سأبقى معك بعض الوقت، لا تقلقي. هل اتَّصلتْ بك ماري؟

-نعم، ولكن....

كرّرت الحركة نفسها، تلك التي تُعبِّر بها عن عجزها.

-أنا ...لا...إذن...يجب أن...

-هل جاءتك بجديد؟

-نعم، هي تتّص.... ولكنَّني أنا...لا...الكثير من ....ومنذ وقت... يجب دائمًا...إنه شيء **صصمعبب**.

نظرت إليَّ بنظرةِ من يشعرُ بالذنب.

-لا تقلقي يا ميشكا، كلُّ شيء سيكون على ما يُرام.

ثم ساد الصَّمتُ بيننا.

كان بإمكاني أن أقترح لعبةً، أو أن أُخرج الحاسوب المحمول

من حقيبتي وأعرض عليها بعض الصُّور، أو أُشغِّل لها موسيقى من زمن شبابها، فهذا دائمًا ما يُحفِّز ذكريات المقيمين، وهم يُحبُّون ذلك كثيرًا. لكنّني صمتُّ.

أحيانًا، علينا أن نتحمَّل الفراغ الذي يُخلِّفه الفقد، ألّا نتهرَّب منه، وأن نقبل بأنّه لم يعد هناك ما يُقال. أجلسُ بجانبها، أُمسك يدها، ونبقى هكذا. تُغلق عينيها، ولا أعدُّ الوقت. أشعرُ بكفِّها تزداد دفءا بين يديَّ، وأظنُّ أنني ألمحُ على وجهها أثرًا من الرَّاحة. بعد دقائق أنهض من جانبها.

- سأعود لأراك غدًا يا ميشكا.

في اللّحظة التي كُنتُ فيها على وشك إغلاق الباب، نادتني:

- جيروم؟

كان من النَّادر أن تُناديني باسمي، تنساه في مُعظم الأوقات.

- نعم.

- شكرم.

أراها كما لو أنَّني هناك، وسط تلك المساحات الفارغة، الجافة، حيث تتكسَّر الجُمل عندما تُحاول النُّطق، وكأنها مناظر طبيعية قاحلة، باهتة الضَّوء، مُستويةً بشكل يبعثُ على القلق، ولا شيء، لا شيء يمكن التمسُّك به، كأنها أفق نهاية العالم.

تبدأ بالكلام، لكن الكلمات تهرب منها، تتهاوى كما لو أنها تسقطُ في حُفرةٍ. لم تعد هناك إشاراتٌ أو علاماتٌ، لأنّ الطَّريق نفسه

لم يعد موجودًا لعبور هذه الأراضي العقيمة. الكلمات اختفت، ولا صورة تستطيع أن تحلَّ محلَّها.

صوتها يختنقُ تحت وطأة الهزيمة، يتلاشى شيئًا فشيئًا، وكأنَّ عقبات مجهولة تعترضه، كُتلٌ مُظلمة لا اسم لها، ولا سبيل لتجاوزها. لم يعد هناك شيءٌ يُمكن مشاركته، وكلُّ محاولة منها تسقط في بئر بلا قرار، حيثُ لا شيء يعود أبدًا.

تنظر في عينيَّ بحثًا عن دليلٍ، عن مفتاحٍ، عن مسارٍ بديلٍ، لكنّ نظراتي لا تُقدِّم لها شيئًا، لا إشارة، ولا مخرجًا. الطَّريق مسدود. خيطُ الحوار ينقطعُ. ثم يسودُ الصَّمت بيننا ولا شيء بعد الآن يُمسك بها.

ماري

لم أتَّصل بها لأخبرها بموعد قُدومي، فقد باتتْ المكالمات الهاتفيَّة بلا جدوى، عابرةً كأنَّها لم تكن، تتركُ على لساني مرارة الفشل المرعب.

دخلتُ الغرفة بهدوء، مانحةً إيَّاها الوقت لتعتاد على وجودي. كانت واقفةً بالقرب من النَّافذة، وكأنّني باغَتُّها في لحظة شكٍّ أو تردُّدٍ، مُتصلّبةً في مساحة مُحايدة بين الكرسي والسَّرير. لكن ما لفت انتباهي واجتاحني حقًّا التَّغيير الجذريّ الّذي طرأ عليها خلال بضعة أسابيع فقط. لقد أصبحت مُسنَّةً.

هذه المرَّة، لم يعد هناك شكٌّ. اِمتلأ وجهها بالغضون، وبهت لونُ بشرتها، ونحل جسدها، وبدأت تفقد توازنها تدريجيًّا. اُضطررتُ إلى كتمان الأسى الذي أثاره المشهد في داخلي، وإخفاء أيَّ تعبير عن الدَّهشة أو الفزع، كما وجب على جسدي ألَّا يظهر أيَّ تراجع.

حافظتُ على ابتسامتي وتقدَّمتُ نحوها، فرمقتني بدهشةٍ وكأنَّها لا تصدق أنَّني هنا.

استطعتُ أن أتخيَّل الطَّريق الذي يجب أن تسلكه هذه المعلومة

لتصل إلى عقلها، رغم غياب أيَّ تحذير مُسبق: نعم، أنا هنا، وأنا أقترب منها. قالت:

-أوو...لالا...ماري...لكنَّ الطبيب؟

كانت مذهولةً ومُتأثِّرةً من حجم بطني. تبادلنا القُبَل بينما كانت تُمسك بحافة السّرير لتستند وتُثبِّت نفسها.

-اصغي إليّ، أقضي أيامي مُستلقيةً في المنزل طوال الوقت، وإذا اِستمررتُ على هذا الحال، سأفقد عقلي! لذلك قرَّرتُ أن أتملَّص... وأردتُ أن أراك.

-هذا....هو....الشَّاب....جيرو.....هل هو الشَّاب الذي خطَّط للزيارة؟

-نعم، اتَّصل بي جيروم ميلو وأخبرني أنّه سيأخذ إجازة لمدَّة أسبوع. كان يشعر بأنكِ حزينة قليلًا هذه الأيّام، وكان قلقًا بشأن مغادرته، خصوصا إذا لم يكن هناك من يزوركِ طوال الأسبوع. كما إنَّ السيدة دانفيل مُصابة بالإنفلونزا... هل كنتِ على علم بذلك؟

-آه...لكن لا...ليس...على أيِّ حال...يجب عليك أن.... تكوني حذرةً.

-اجلسي يا ميشكا. سأبقى هنا قليلًا، وأنا أيضًا بحاجة إلى الجلوس. لا تقلقي، جئتُ بسيَّارة أجرة وسأستقلُ أخرى عند مغادرتي. وابتداءً من هذا الأسبوع، لم يعد هناك خطر على الجنين، حتّى لو ولدتُ قبل الموعد المحدَّد.

جلستْ، ثم أجابتني:

- آه، أفضل.

نظرتُ إليها، وقد غمر كلينا التأثُّر.

- أنا سعيدة جدّا لرُؤيتك يا ميشكا!

- وأنا أيضا، أحملُ الشعور نفسه.

- هل تشعرين بالملل؟

- قليلًا.

- فكَّرتُ أنّه، بما أنّكِ لم تعودي قادرةً على القراءة، ربّما يُمكنني إحضار مُشغِّل أسطوانات مع بعض الكُتب الصَّوتية لكِ. هُناك محتوى رائع مُتاح في هذا المجال.

- لا...لا..إنّه *صصععبب*.

- ما الذِّي تجدينه صعبًا؟ هل هو الاستماع إلى الأسطوانات؟

- لا...ال...ال...الآلة.

- تقصدين مُشغِّل الأسطوانات؟ لا، ستجدين أنه ليس معقدًا. لديَّ واحد قديم بأزرار كبيرة، وكل المعلومات مُدوَّنةٌ أسفلها. سأُحضره لكِ في المرَّة القادمة.

- *مرافقة*..... إذا أردت.

التزمتْ الصَّمت لعدَّة ثوانٍ، ثم نظرت إليَّ مُبتسمةً، لكنِّني أدركتُ أنّها تخلَّت عن محاولة الشَّرح أو السَّرد. اكتفت بتحويل دفَّة الحديث إليَّ. فقلتُ:

- لا أذكر إن كنتُ قد أخبرتك، لكنّني التقيتُ قابلةً رائعةً في مصلحة الأمومة، وهي الّتي ستعتني بي.

- آه، هذا جيِّد.

- كما أنَّ رئيسي في العمل اتَّصل بي أمس ليطمئن عليَّ. إنَّه شخصٌ لطيفٌ جدًّا، فرغم أنَّني توقَّفتُ عن العمل قبل الموعد المتوقَّع، إلّا أنه لا يبدو مُستاءً من ذلك.

- ...و... (بحثتْ عن كلمةٍ، ثم أشارت بيدها إلى شيء أكبر منها) ...الهندي..

- لوكاس؟

- نعم، هو.

- حسنًا... سيُغادر الأسبوع المقبل. لقد قدَّموا موعد سفره، فالشَّخص الذي كان يشغل المنصب في الهند تمّ نقله قبل الموعد الـمُقرَّر، لذا لن يتمكَّن من رؤية الطفل قبل مغادرته.

- آه..لكن...الآن؟

- إنّه مشغول جدًّا بعمله وبالتَّحضيرات لانتقاله وما يترتَّبُ عليها. لكنَّه ساعدني كثيرًا، فقد كان يتولَّى التّسوُّق لي عندما لم أكن قادرةً على التحرُّك، ورافقني عدَّة مرّاتٍ إلى مصلحة الأمومة. على أيِّ حال، لا تقلقي يا ميشكا، كلّ شيء على ما يُرام. كما تعلمين، أنا قادرة على التعامل مع الوضع. كُنتُ أعلم أنَّ هذا سيحدث، واتَّخذتُ قراري. سأتمكَّنُ من التَّعايش مع ذلك.

ثمّ عمّ الصَّمتُ مرّة أخرى.

وضعت يدي على بطني فوق الفُستان، فسألتني:

- هل يتحرَّك؟

- نعم، إنّه يتحرَّك، إنّه مُدهشٌ حقًّا.

- إنّه يبدو كبيرًا جدًّا.

- صحيح، أنتِ على حقّ! في الواقع، بدأ يُصبح ثقيلًا بالفعل! في اللَّيل، أجدُ صعوبةً في اتِّخاذ وضعيّةٍ مريحةٍ، وأتقلَّب لساعاتٍ. وأنتِ يا ميشكا، هل تنامين جيِّدًا؟

- نعم...الأمور على ما يُرام... يجبُ أن أعتاد على الصَّمت.

- وأرماند، كيف حالها؟

- قد كانت ...مصابةً بالزكام... أيضًا.. في ....لا ..لم أرها.

- هل بقيتْ إذن في غرفتها؟

- نعم ما زالت ....هناك.

- لا بدّ أنَّ الأيام تمرُّ ببطء شديد عليكِ... مسكينة يا ميشك.

- ليس لهذا الحدِّ، ولكن...لكنّني أشعرُ باللاّ جدوى.

- ماذا عن التِّلفاز؟

- أوه لا، كما تعلمين...هناك الكثير من الظَّلام.

- في أحد الأيّام، شاهدتُ فيلمًا كان لوكاس قد حمَّله لي على الكمبيوتر. كُنتُ وحدي في المنزل، فتابعته بهدوء وأنا مُستلقية على الأريكة. لكن عندما انتهى، بدأتُ أبكي...

بكيتُ بشدَّة! لا يمكنُ تخيُّل كم بكيتُ... لم أستطع التّوقُّف.

- أوه...هل كان ذلك بسبب أنّك *حافل*[1]؟ ...

- لا، لا. حسنًا، لكن ليس بسبب ذلك فقط. هل ترغبين أن أُخبركِ بقصَّته؟

فجأةً، لمعت عيناها ببريق خاصّ. كانت تُحبُّ أن أُخبرها عن الأفلام والكُتب وحياة أصدقائي، وتُصغي باهتمام، كما لو أنَّ هذا النَّوع من الإنصات كان مخصّصًا فقط للقصص.

- القصَّة تدور حول فتى صغير، عمره اثنا عشر أو ثلاثة عشر عاما، يُربِّيه والده بمفرده. تجري الأحداث في بلجيكا، تحديدًا في منطقة فقيرة جدًّا تأثَّرت بالأزمة الاقتصاديَّة. نعرفُ من الفيلم أنَّ والدة الفتى قد تركته، لكنَّ السَّبب يظلُّ مجهولًا.

عاد الأب للعيش مع والدته، أي جَدَّة الفتى، ومع أخويه الاثنين، وجميعهم عاطلون عن العمل، لا يفعلون شيئًا سوى شُرب الكحول طوال اليوم. ومع ذلك، فالقصَّة ليست حزينةً تمامًا، وهناك لحظات مُفرحة، مثل سباق الدرَّاجات ومشاهدة التلفاز. لكنَّ الأب كان يضرب الصبيّ باستمرار، ربّما لأنّه كان يراه غير مُطيع، أو لأنه كان يُلاحظ فيه شيئًا مختلفًا.

في أحد الأيّام، زارتهم مُوظَّفة اجتماعيّة، فاستشاط الأب غضبًا، واعتقد أنّ الجدَّة هي من أبلغت مصلحة الخدمات الاجتماعيّة. فقام

(1) بدل أن تقول enceinte التي تعني حامل، قالت cintre ...ton، تم اعتماد حافل.

بضربها، لكنَّها التزمت الصمت. تمَّ إرسالُ الصَّبي إلى مدرسة داخليّة، حيثُ بدأ بتعلّم القراءة والدِّراسة، وبدأ حياةً جديدةً. لاحقًا، اكتشفنا أنّه أصبح كاتبًا ويُعيش مع امرأة حامل بطفلهما.

في النِّهاية، ثمّة مشهد مؤثّر جدًّا، حيثُ يذهب الفتى -وقد أصبح رجلًا- لزيارة جدَّته في دار المسنِّين، ويشكرها لأنّها لم تُفشِ سرَّه، ولم تُخبر والده أنّها لم تكن من استدعى مصلحة الخدمات الاجتماعيّة، بل هو من فعل ذلك.

لا يُمكنك تصوُّر كم بكيتُ! إنَّه فيلمٌ رائعٌ يتناول أُصول الأشياء، وكيف يبني كلّ شخص حياته بناءً على ما ورثه. كان سيُعجبكِ يا ميشكا، أنا متأكِّدة من ذلك.

فجأةً، بدت وكأنّها تغرقُ في دوّامة من التَّفكير. ثم قالت:

-آه نعم...نعم.

-أنا أيضًا، أودُّ أن أشكركِ يا ميشكا. شكرًا على كلِّ شيء. من دونك، لا أعرف كيف كان سيكون حالي اليوم. ربّما لم أكن لأتمكَّن من البقاء في شارع *ديزاماندي*، وربّما لم أكن لأجد مكانًا ألجأُ إليه. وفي وقت لاحق، ما كُنتُ لأتمكَّن من الدِّراسة. وعندما مرضتُ، كنتِ إلى جانبي، كما تعلمين... ولم أكن متأكِّدة إن كُنتُ سأتمكّن من النُّهوض من دونك.

تُحاول ميشكا إخفاء تأثُّرها، فتبحثُ في جيب بنطالها عن مناديلَ ورقيّة. ثمّ تتكلَّم:

-آه...لكن لا.

- بل نعم.

- أنتِ... أنتِ... *تُنالغين*[1] دائماً.

تصمتُ لعدَّة ثوانٍ، ثمّ تهمس:

- ماذا كان عنوانه؟

- الفيلم؟

- نعم.

- «*بُؤس* الأشياء» (la merditude des choses)

- آه، *البؤش*[2].

تُفكِّر للحظة، ثمّ فجأةً تُصبح جادةً.

- هل أنت متأكِّدة من أنَّ هذه الكلمات: جميل، مهذب... موجودة فعلا؟

حلَّ الليل، وأُسدلت السَّتائر المزخرفة.

تحتَ ضوء المصباح الأصفر المعلَّق في السَّقف، تقفُ ميشكا وحدها وسط غُرفتها. تتحرَّك بصمتٍ. في البداية بحذرٍ، ثم تزداد جُرأتها شيئًا فشيئًا.

ترقصُ. ترفعُ ذراعيها، تدورُ حول نفسها، تنحني كأنَّها تُؤدِّي تحيةً، ثمّ تستقيمُ بفخر. في مرَّات عديدة، كادت تفقدُ توازنها، لكنَّها كانت في كلّ مرَّة تستعيدُه بثبات.

---

(1) بدل أن تقول exagère التي تعني تبالغ، قالت étagères. تم اعتماد تنالغين.

(2) بدل أن تقول merditude التي تعني البؤس قالت mercitude. تم اعتماد البؤش.

ثمّ تناهى إليها صوت الطِّفلة، وكأنّه قادم من حُلم: *«هل سأقضي اللّيلة عندكِ؟ هل ستتركين المصباح مُضاءً؟ هل ستَبقيْنَ معي؟ هل يُمكنكِ إبقاءُ الباب مفتوحًا؟ هل يُمكنكِ مشاركتي فطور الصَّباح؟ أأنتِ خائفة؟ هل تعرفين أين تقع مدرستي؟ لن تطفئي النور، أليس كذلك؟ ستُرافقينني إن لم تستطع أمّي ذلك؟»*.

فتحتْ ميشكا ذراعيها، ثمّ جمعتهما حول جسدها، ووضعتْ يديها على ظهرها. عانقت نفسها للحظة، كما لو أنَّها تُحاول منع أحدهم من الرّحيل... أو كأنَّها تُهدهدُ طفلًا.

دخلت المديرة الحقيقيَّةُ الغرفةَ بعد أن طرقت الباب. كانت ميشكا مُستلقيةً على سريرها، فخاطبتها:

- صباح الخير سيِّدة سالد، كيف حالك؟

- نعم، أنا بخير.

- لعلَّك تذكرين أنَّ السيِّد ميلو، أخصّائي النُّطق الخاصّ بك، إنه في عطلة هذا الأسبوع، أليس كذلك؟

- نعم، بالطبع.

- اتَّصل بي هذا الصباح ليطلب منّي نقل رسالةٍ إليكِ. قال إنّها مهمة جدًّا، وبما أنّكِ لم تعودي قادرة على الردِّ على الهاتف، فقد أوصاني بتبليغها لك.

أخرجت المديرة الحقيقيَّةُ ورقةً من جيبها قد دوَّنت عليها بعض الملاحظات مخافة أن تنسى شيئا.

- قال إنّه وجد الأشخاص الّذين كُنتِ تبحثين عنهم في *لا فيرتي سو جوار*. هم لا يُقيمون الآن هناك، لكنّهم ما زالوا في المنطقة نفسها. وسيذهب لرؤية السيِّدة، فهي ما زالت على قيد الحياة، وسيُخبرك بكلّ شيء لاحقًا.

احتاجت ميشكا لحظةً لاستيعاب هذه المعلومات، ثمّ قالت:

- هل ...هل هذا...حقيقيّ؟

- نعم، بالطبع يا سيِّدة سالد، هو حقيقيّ تمامًا.

- أوه...*شكرم*...*شكرم* كثيرًا.

فكَّرت ميشكا لبضع ثوانٍ، ثمّ قالت:

- يجبُ أن أُخبر....ماري. هي...هي ..

- أن تُعلميها؟

- نعم.

- سأهتمّ بذلك يا سيِّدة سالد، سأتّصل بها وأبلِّغها الرسالة تمامًا كما نقلها السيِّد ميلو، أهذا ما تُريدينه؟

- *مرافقة*.

- وأردت أن أُخبركِ أيضًا أنّني تحدَّثتُ مع الممرضة المساعدة، وشرحتُ لها الموقف. لقد وعدتني بأنّها ستكون أكثر حذرًا ولن تكرِّر ما فعلته معكِ، إذا لم يكن هناك داعٍ لذلك. هي الآن في إجازة، ستعود الأسبوع المقبل، وبدوري سأعود لأتفقَّد كيف تسيرُ الأمور.

- أنا عاجزة عن الشُّكر.

- لا داعي للشُّكر سيدة سالد، فهذا جزء من عملي، حسنًا، سأذهبُ الآن. يومك سعيد.

جيروم

كانت تنتظرني بلهفةٍ، فهي تعرفُ مواعيدي جيّدًا. تُدرك أنَّني في المؤسَّسة منذ الصَّباح، لكنّ لقاءنا مُحدَّد في الثالثة بعد الظهر، كما هو الحال كلّ ثلاثاء. ربما تساءلتْ إن كنتُ سأمرُّ عليها قبل الموعد، ولو سريعًا، لمجرَّد تبادل بضع كلمات. راودتني الفكرة، لكنّني خشيتُ أن أُربكها، فأنا بحاجة إلى الوقت لأُخبرها بما حدث.

عند الثَّالثة تمامًا دخلتُ غرفتها أخيرًا. حاولتْ أن تنهض باذلةً بعض الجُهد (وقد علمتُ من الموظفين أنَّها باتت تميل إلى قضاء يومها مُستلقيةً على السَّرير). لكنَّها اليوم ارتدت ملابسها، ولفَّت عُنقها بالوشاح المزخرف الذي كُنتُ قد أبديتُ إعجابي به مرارًا. كانت جالسة على كرسيّها. وما إن رأتني حتّى أضاء وجهها بابتسامة دافئة. خاطبتني:

- آه، صباح الخير...جي...

- صباح الخير ميشكا، أنا سعيد جدًّا برؤيتك. اشتقتُ إليك!

ابتسمتْ وهي تعدِّل تسريحتها.

- كيف تشعرين؟

- بخير بخير، ماذا عن...الأصدقاء؟

- آه، لديَّ الكثير لأخبرك به. هل أنت مُستعدِّة؟

- أوه، نعم، جدّا.

- أدارتْ وجهها نحوي ببطء، وكأنَّ الزَّمن نفسه تباطَأَ؛ نبضاتها الخافتة، حركتها المتأنِّية، رمشُ عينيها المتثاقل.

خيّم الصَّمت على الغرفة في تلك اللحظات. قُلتُ:

- سأبدأ من البداية... كنتُ قد اتَّصلتُ بهاري قبل أن أُغادر، عندما رأيتك مرهقةً جدًّا، وكُنتُ قلقًا عليك. تحدَّثنا قليلًا، وأخبرتني أنَّك لا تزالين تبحثين عن الأشخاص الّذين أنقذوك خلال الحرب، وأنَّك نشرت إعلانًا جديدًا، لكن دون جدوى. كُنتِ حزينةً، وظهر ذلك لمن حولك. أمّا أنا فلم تكن لديَّ خُطط مُحدَّدة لقضاء عطلتي، فقرَّرت الذَّهاب إلى *لا فيرتي سو جوار*. وبما أنّني أحبُّ العفويّة، فقد اخترتُ الإقامة في نُزل صغيرٍ وجميلٍ، وبقيتُ هناك لبضعة أيّام. بدأتُ أستفسر في المقاهي والمخابز، ولدى كاتب العدل، وفي عيادة الطَّبيب. وأخيرًا، التقيتُ صانع أحذية مسنًّا كان يعرف نيكول وهنري أولفنجر. تطابقت الأسماء، وتذكَّرتُ أنّهما كانا موضع شائعات حول إخفائهما لفتاة صغيرة لعدَّة سنواتٍ. أعطاني صانعُ الأحذية اسم ابنتهما، مادلين، التي لا تزال تعيش في *لا فيرتي* بعد زواجها. قصدتها، فاستقبلتني بلُطفٍ شديدٍ،

وأكَّدت لي صحَّة القصَّة، إذ كان والداها يرويانها كثيرًا وكانا دائمًا يفكران فيك.

توقَّفتُ لحظةً، أُراقب إن كانت قادرةً على استيعاب ما سأقوله بعدها. ظلَّت عيناها معلّقتين بعينيَّ، مُنتظرةً أن أواصل سرد التَّفاصيل.

-كانت والدتكِ تنوي أخذكِ إلى المنطقة الحُرَّة، حيثُ يُمكنها أن تترككِ مع أصدقاء والدكِ في مقاطعة *رون*، لكن تَعرَّضَ الطريق للقصف، فتوقَّف القطار في الريف بالقرب من *لا فيرتي*. أمسكتْ والدتك بيدكِ وسارت بكِ مسافةً طويلةً حتى لمحت أوّل منزلٍ يبعد كيلومترًا عن المدينة. طلبتْ منكِ أن تنتظري تحت شجرة وألّا تتحرَّكي، ثم مضت إلى الباب وطرقته. وما إن فتحته نيكول أولفنجر حتى بدأت والدتكِ تتوسَّل إليها، تتوسَّل إلى امرأة لم ترها من قبل، راجيةً أن تأخذ ابنتها الصغيرة ذات السَّبعة أعوام، قائلةً: «يجبُ أن تحتفظا بها، سأعودُ، لكن فقط احتفظا بها اليوم، أرجوكما». في تلك اللحظة، اقترب هنري من الباب، فتبادل نظرةً مع زوجته، ثم قالا معًا: نعم. كرَّرت والدتكِ وعدها بأنَّها ستعود... لكنّها لم تعد أبدًا.

توقفتُ مرّةً أخرى، مُتأمِّلًا ملامح ميشكا. كانت عيناها مُعلَّقتين بي، مُنصتةً، بانتباه شديدٍ، عندما قلت:

-كانا يُدركان تمامًا خطورة ما يُقدمان عليه، والمخاطرَ الّتي قد يواجهانها. لذلك، أوّل ما فعلاه هو إحراق معطفك، ذاك

الّذي كانت النَّجمة الصفراء مُحاطةً عليه. أخفوك طوال تلك السّنوات، وأخبروا الجيران والأصدقاء أنَّك ابنتهما. وفي أكتوبر 1943 تعرّضت *لا فيرتي* للمُداهمة. تمّ ترحيل نحو خمسة عشر شخصًا، وخشي نيكول وهنري أن يكون أحدهم قد وشى بهما. لم يتردَّدا لحظةً، وأسرعا إلى إخفائك في الحظيرة، تحت قطعة قماش، حيثُ بقيتِ هناك طوال اللَّيل. لكن في النهاية... لم يأتِ أحد. ثم عندما انتهت الحرب، وفي صباح أحد الأيّام، دقّت قريبةُ والدتك الباب. كانت والدتك قد أرسلت إليها رسالةً، مُرفقة بخريطة مرسومة من الذاكرة، تُحدِّد المكان الذي تركتك فيه، تحسّبًا لأيّ ظرفٍ طارئٍ، وذلك بعد أن تمَّ ترحيلُ والديك. هذه هي القصَّة التي رُويت لمادلين، ابنة نيكول وهنري أولفنجر، والّتي وُلدت بعد الحرب. قصَّتك، حين استقبلك الزَّوجان في منزلهما، وكانا حينها حديثي العهد بالزواج. مرَّت السَّنوات، ورحل هنري، لكنَّ نيكول ما زالت على قيدِ الحياة. تعيش الآن في دار لرعاية المسنِّين في المنطقة، وقد بلغت من العمر تسعة وتسعين عامًا.

كانت دموع ميشكا تنسابُ بصمت على وجنتيها، بلا أيِّ صوت. لم تُحاول مسحها. مددتُ يدي وأمسكت بيديها، فوجدتُهما باردتين حتّى إنّني خفتُ لوهلة أن يكون قلبها قد توقّف عن النبض. سألتها:

- هل أنت بخير؟ هل تُريدين أن أخبرك المزيد؟

- أومأت لي بالموافقة.

- ذهبتُ لرؤية نيكول أولفنجر، التي فقدتْ بصرها وضعُف سمعها، لكنّها ما زالت تحتفظُ بقدرتها العقليّة. تحدَّثتُ معها مُطوّلًا عنك، وأخبرتها أنَّك كُنت تبحثين عنهم، لكن عدم معرفتك بأسمائهم الكاملة حال دون ذلك. أدركت الأمر على الفور، فاغتنمتُ الفرصة لأوضِّح لها مدى أهميَّة أن تتمكَّني أخيرًا من التّعبير عن امتنانك. فتأثَّرت بشدَّة لسماع ذلك.

أخبرتها أنَّك ستشعرين بسعادةٍ غامرةٍ حين تعرفين أنَّها لا تزال على قيد الحياة، وأنَّ الوقتَ لم يفت بعد. وعندما سألتها كيف تمكَّنوا من الصُّمود طوال تلك السَّنوات الثلاث، أجابت بكلمات أرادت أن أنقلها لك: «في أسوأ الأحوال نقول لا، ثمّ لا يعودُ لدينا خيار» وأضافت: «ليس هناك ما يدعو للفخر في ذلك».

عند سماع هذه الكلمات، غطَّت ميشكا وجهها بيديها، كأنَّها تُحاول احتواء مشاعرها الجارفة. واصلتُ:

- أتعلمين يا ميشك، أنا أيضًا بكيتُ بمجرَّد أن غادرتُ غرفتها.

بقيتْ على حالتها تلك بضع دقائق.

- اجتاحتك مشاعر كثيرة دُفعةً واحدةً، أليس كذلك؟

لم تقل شيئًا، لكن أنفاسها المضطربة أفشت ما تُحاول إخفاءه، ورأيتُ في عينيها إصرارًا على حبس دموعها.

- من يدري، ربّما في الربيع يُمكنني اصطحابك إلى هناك؟

خفَّضت يديها ببطء، ثم رفعت عينيها نحوي.

قالت:

- نعم...لكن...أنا... متتعبب[1]..للغاية..ربّما

- إذا رغبتِ، يُمكنني العودة غدًا ومعي دفتر مراسلاتي الصَّغير، وسأُساعدك في كتابة الرسالة. ما رأيك؟

ارتعش ذقنها، لكنَّ دموعها توقَّفت عن الانهمار. قالت:

- مرافقة.

في اليوم التّالي، وجدتُها جالسةً إلى مكتبها، مُستعدّةً تمامًا. جلستُ بجانبها، وضعتُ الدفتر أمامها، وقدَّمتُ لها أحد أقلام الرَّصاص الخاصَّة بي. أعلم أنَّها لا تُحبُّ الأقلام الجافَّة أو أقلام الحبر، فهي تُفضِّل ما يمكن محوُهُ وإعادة كتابته. بقي القلم ساكنًا بين أناملها بضع دقائق، وكأنَّه ينتظرُ الكلمات. أعلمُ كم باتت نادرةً الآن، بعيدةً، مدفونةً، متداخلةً. قلتُ:

- هل تُريدين أن أُساعدك يا ميشكا؟

أشارت برأسها نافيةً، فابتعدتُ عنها قليلا، وجلستُ عند طرف السَّرير، مُلقيًا نظرةً عبر النَّافذة. كان هناك مُتَّسعٌ من الوقت للعمل.

لمحتها تكتبُ ببطء شديد، خطَّت حوالي عشر كلماتٍ، كانت

---

(1) بدل أن تقول crevee التي تعني متعب قالت grevee. تم اعتماد متتعبب

يدها المرتعشة تبذلُ جُهدًا مضاعفًا، لكنَّها تُواصل التَّركيز. أعلم أنّها، في هذه اللحظة، تمنحُ كلّ ما تبقَّى لديها، تستنفدُ آخر ما في جُعبتها. كان اِحتكاك القلم بالورق مسموعًا، فقد كانت تضغطُ عليه بشدَّة، كأنّها تحفرُ الكلمات في أعماقها.

شعرتُ برغبة في الاستلقاء على سريرها، أن أغمض عينيَّ لدقائق، لأنّ شيئًا في هذه الغرفة، بجوار هذه السيِّدة المسنَّة، منحني إحساسًا غريبًا لكنَّه دافئ... إحساسًا يُشبه الأمان.

وعندما انتهت، طَوَت الورقة ببطء. ودون أن ترفع عينيها وضعتها في الظَّرف وأغلقته. قبل كلّ شيء، تستحقُّ ميشكا هذا القدر من الكرامة. قمتُ بكتابة عنوان دار رعاية المسنِّين التي تُقيم فيها نيكول أولفنجر ورقم غُرفتها على الظّرف. ثم قلتُ:

- سأُرسلها عندما أغادر.

أومأت برأسها موافقةً.

- نلتقي يوم الخميس؟

أومأت برأسها مُجدَّدًا...كانت تبدو مُرهقةً.

لكن قبل أن أرحل، وبحركة خفيفة من يدها أمسكت بي. وهمست:

- وأنت؟ ماذا ... عن *واللددك*[1]؟

- آه...

---

(1) بدل أن تقول pere التي تعني والد، قالت pierre. تم اعتماد واللددك.

- ما الذِّي ستفعله؟

- لا أعرفُ حقًّا يا ميشكا.

- ولكن لماذا...قد مرّ وقتٌ طويلٌ؟

- كما تعلمين، لم يسْعَ والدي يومًا لرؤيتي. في الواقع. أظنُّ أنَّ وجودي كان يُربكه أكثر ممّا يعنيه، فهو لا يعرفني حقًّا، أو ربّما لم يرَ فيَّ سوى صورة مُشوَّهة ترسَّخت في ذهنه إلى الأبد.

- ولكن لماذا؟

- لا أعرفُ. ربما ببساطة لأنَّني لم أكن الابن الذي حلُم به، وكأنَّ شيئًا فيَّ يُحرجه. يراني خصمًا، يترصَّد أخطائي، يبحثُ عن ثغرة، وحين يجدها يردُّ بطريقته الخاصَّة. لكنَّ الكلمات تُؤلم، كما تعلمين... الشَّتائم، الإهانات، السُّخرية، النّقد، اللّوم، كلّها آثار لا تُمحى. وتلك النظرة، نظرة المُحاكمة التي تُنقِّب عن نُقطة ضعف، ثمّ التهديدات... كلُّ ذلك يتركُ أثرًا. ومن الصَّعب بعد ذلك أن نمنح الثّقة، أو أن نُحبَّ أنفسنا.

أعلم أنّه عانى كثيرا، وأعلم أيضًا أنَّ الوقت يمرُّ... وهذا صحيح، أنتِ محقَّة. لكن هل يأتي يوم تهدأُ فيه الأمور حقًّا؟ لا أدري، لستُ متأكّدًا. أحبُّ أن أصدِّق ذلك. منذ زمن سامحته، ولا أعرف إن كان ثمّة شيء آخر يُمكنني فعله... شيء أكثر لطفًا.

ظلَّت تُحدِّق في عينيّ. وعلى سبيل الإجابة الصّامتة دفعت نحوي الدفتر والقلم برفق، وقالت:

- كلّ هذا يجب أن تضعه.

- أين أضعه يا ميشكا؟

- على الورق.

- حسنًا أعدك بذلك، سأضع كلّ هذا على الورق.

كنّا في مواجهة بعضنا البعض، سألتها:

- تبدين يا ميشكا في حالة جيِّدة اليوم، هل تودِّين القيام ببعض التَّمارين لتنشيط نفسك؟ أعطني عشر كلمات تنتهي كلّها بهذه القافية «دار».

أجابت فورا:

- أفكار، شعار، اِنحشار، أطوار، تبادل أفكار، اِزدهار، تُجَّار، انحدار، احمرار، مسار[1].

- رائع، إنّك فعلًا خبيرة، والآن كلمات تنتهي ب ....

قاطعتني:

- الرّحيل.

- آه، حسنًا...إذا أردتِ.

- لا، أكمل أنت.

- حسنًا: تأهيل، رذيل.

- هذا فقط؟

كانت تحبُّ ممازحتي. أردفتْ:

---

(1) Raison, blason, foison, saison, liaison, floraison, cargaison, inclinaison, démangeaison, comparaison.

- سأساعدك، إليك: تدجيل، خليل، تأجيل، تذليل، توصيل[1].

- أحسنت يا ميشكا، أنت فعلًا الأفضل.

تركتُ الصّمت يُخيِّم علينا، كمساحة علينا أن نُتقن مُشاركتها، لكن بعد لحظة، لم أستطع مقاومة الرَّغبة في الكلام.

- سأقولها بصراحة يا ميشكا، يُزعجني أولئك الأشخاص الّذين يرحلون دون أن يخبروا أحدًا.

- لا أفهم، عمّ تتحدَّث؟

- عندما يُقرِّر النّاس الموت، عليهم أن يُنبِّهونا. سواء كان ذلك باختيارهم أم لا، فهذا شأنهم وحدهم. لكن، في النّهاية، علينا على الأقل أن نتلقَّى؛ رسالةَ تحذيرٍ، رسالةً، رسالةً نصيَّةً، رسالةً صوتيَّةً، بريدًا إلكترونيًا. لا أعرف كيف يتمُّ الأمر، لكن يجب أن تكون الإشارةُ واضحةً، دون أيِّ غموض: انتبه، فالسيِّد فلان، السيِّدة فلانة، ابن عمك، صديقتك، زوجك، جارك، والدتك... قد تختفي في المستقبل القريب، بل ربّما في أيِّ لحظة. اللّعنة إذن.

فقدتُ أعصابي دون جدوى، وبدا لي أنَّ ميشكا تأثَّرت لذا حاولتُ أن أشرح.

- صحيح أنّ الأمر مُزعج في النّهاية، فنحن نظنّ دائمًا أنّ لدينا مُتَّسعًا من الوقت لنقول ما نريد، ثمّ فجأةً نجد أنّه قد فات الأوان. نعتقدُ أنَّ الإيماءات والتصرُّفات تكفي، لكنّها لا

(1) Sort, consort, report, effort, transport, aéroport... fort

تكفي. لا بدَّ من النُّطق بها، بتلك الكلمات التي تعتزُّون بها كثيرًا. الكلمات مهمّة، ولستُ أنا من يحتاج إلى إخبارك بذلك، فقد كُنتِ مُصحِّحةً لغويّةً في مجلة مرموقة، إن لم أكن مخطئًا.

- ماذا كُنت تريد أن تقول؟

- لا أعرف! ربّما كلمتين أو ثلاثا تُقال لحظة الوداع... «لقد كان الأمر جميلًا»، «سعيدٌ بمعرفتك»، «إنّه لشرف لي»، «سُعدت بلقائك»، «رحلة موفّقة»، «حظًا موفّقًا في المجهول»، «شكرًا على كلّ شيء»، لا أدري! أو ربّما... أحتاج إلى عناق.

- طبعا، أُدنُ.

دنوتُ منها، شعرتُ بجسدها الضّعيف، في البداية بحذر، ثمّ استسلمتُ للعناق. وفجأةً، ملأت موسيقى جاك بريل غرفة ميشكا، فبدأنا نرقص قليلًا.

فالس مائة زمان

فالس مئة عام

فالس في كلّ مفترقات الطرق

في باريس التي يُنعشها الحبّ في الربيع[1].

ولم تلبث ميشكا أن تراجعت، ثمّ قالت:

---

(1) Jacques Brel, La Valse à mille temps, 1959 (paroles : Jacques Roman Brel, Éric Blau), Warner Chappell Music France/ Les Éditions Jacques Brel. (التعليق في النص الأصليّ)

-هل أنت تحلمُ الآن يا جيروم؟ في الواقع، لستُ متأكّدةً إن كنتُ أنا من يحلم أم أنت! لكن ما أعرفه يقينًا... أنّ هذا حلم.

جيروم (2)

لقد شعرتُ بإعجاب تجاهها منذُ الوهلة الأولى.
تعرّفتُ إليها نعم، هذا هو التّعبير المناسب.
فكّرتُ: سأقبل كلّ شيء.
الابتسامة، الحزن، العينان المتورِّمتان،
الطِّفلة الصغيرة التي خرجت إلى الحديقة من دون معطف،
الشَّابة ذات البطن المنتفخ الذي يَبرزُ من المعطف،
الرَّضيع، ماء الحمام، والبخار الذي يُغطِّي المرآة.

ماري

إنّها تلك الكلمات المعتادة الّتي نُردِّدها في مثل هذه المواقف، كلمات التّعزية الّتي نُحاول بها تخفيف الحُزن عن الآخرين، وعن أنفسنا في الوقت ذاته: «لقد فعلتَ ما بوسعك»، «كنتِ مُهمَّةً جدًّا بالنّسبة إليها»، «لحُسن الحظّ، كنتِ إلى جانبها»، «كان يُحبُّك كثيرًا»، «كانت تتحدَّثُ عنك دائمًا». ولا أحد يعترض على ذلك.

هذا الصّباح، عند لحظة الاستيقاظ، لم تفتح ميشكا عينيها. لقد رحلت بهدوء أثناء نومها، وهي النّهاية الّتي ربما يتمنّاها أيُّ إنسان. أنا مُتأكِّد من ذلك. قبل أن يفقد كلّ شيء.

في الممرِّ، انضمَّ إليّ جيروم أخصائيّ النُّطق، وقد بدا عليه تأثُّر شديد.

- مرحبا أنا جيروم.

- مرحبا أنا ماري.

- كنت أُفضِّل أن ألتقي بك... في ظروف أخرى، هل تمكَّنتِ من رؤيتها؟

- نعم، نعم، قضَيتُ الصباح بجانبها قبل أن يأخذوها. كانت

تبدو هادئة، وملامحها تنبضُ بالسَّكينة، كأنّها استسلمت للنّوم وهي على يقين بأنّها لن تستيقظ مرَّة أخرى.

تجنّب النظر إليّ بضع ثوان، ثمّ شردت عيناه نحو فكرةٍ مُبهمةٍ، ثم عاد بنظره إليّ:

- ألم تجدوا شيئًا غريبًا؟ أعني ألم يقل لكم الطبيب شيئًا آخرَ؟

- لا لا شيء، لقد تُوفِّيت أثناء نومها، ولم تُعان، هذه هي الطريقة الّتي نحلمُ بالموت بها جميعًا، أليس كذلك؟

- نعم بالطّبع.

يُراقبني بتردُّد للحظة، ثمّ يُضيف:

- وماذا عنك ماري، هل أنت بخير؟ هل هذا ليس **صعععبب**؟

تبسَّمتُ، وقلت:

- نعم، ولكن ليس بالكثير.

يبتسم هو الآخر.

- أردتُ أن أقول لك **شكرم** يا جيروم إن سمحت لي أن أُناديك باسمك على كلّ ما فعلتَهُ من أجلها. فكَّرتُ مرَّات في الذهاب إلى هناك، غير أنّني لم أمتلك الجُرأة، خشيتُ أن تكون هذه الزّيارة مُفعمةً بالعواطف، وليس بوسعها امتلاك تلك القوّة لمواجهتها، لكنَّك كُنت على صواب.

- أتعلمين؟ لقد منحتني الكثير، أقصى ما يُمكن أن يُقدَّم. لماذا يا ترى نرتبط ببعض المرضى أكثر من غيرهم؟ لكنَّه وجب

عليَّ أن أقول لها *شكرم* أنا أيضا.

- أعتقدُ أنَّك فعلت ذلك بطريقتك. هل ستحضر الجنازة؟

- نعم، *مرافقة*.

- *مع تقديم بعض السندويشات الصغيرة؟*

- وأن تكون بسيطةً دون زينة.

- سأحرصُ على أن تكون *بالسلبون*.

- وإذا كنتِ في حاجة إلى تفريغ الغُرفة لا تتردَّدي في الاتِّصال بي، فغالبًا ما أكون بالجوار، كما تعلمين.

- شكرا.

- إلى اللّقاء إذن

- نعم إلى اللقاء.

راقبته وهو يبتعدُ في الممرِّ، دخل غرفةً أُخرى، سمعتُ صوته الواضح من خلف الباب:

- إذن يا سيِّدة ليفيبور كيف حالك اليوم؟

صدر مؤخّرًا عن منشورات ذات

أود سيميريا

المخاوف الأربعة

التي تمنعنا من الحياة

ترجمة: أبو بكر العيّادي

أخاف من تخييب الظنّ بي، من الإخفاق في عمل مّا، ومن الأحكام الّتي يُصدرها النّاس عنّي. أخاف من الهجر، من إزعاج الآخرين لي، ومن التّعبير عن مشاعري... فلِمَنْ يُسرّ رجلٌ مثلي بمخاوفه اليوميّة؟ ومن أين يبدأ؟

يقترح هذا الكتاب توزيع كلّ مخاوف الحياة اليوميّة إلى أربعة أصناف. وهي مخاوف مترابطة في ما بينها لأنّها ناجمة كلّها عن نزاع دائم في قلب كلّ واحد منّا، بين الطّفل الّذي كنّا عليه والكهل الّذي سنصير. بيد أنّ ذلك النّزاع الدّاخليّ لا يسلَمُ منه أحد، إنّما يوجد أشخاص أقلّ خوفًا من غيرهم فحسب.

ثمّة أناسٌ عديدون تُضنيهم مخاوفهم وتمنعهم من عيش حياتِهم بطريقةٍ مُرْضية تمامًا. والمخاوف الغامرة تؤدّي في غالب الأحيان إلى فقدان معنى الحياة، وتفشّي المرض، والشّعور بأنّنا ندور في حلقة مفرغة.

هذا الكتاب نظريّ وتطبيقيّ في الوقت ذاته، نجد فيه كلّ المخاوف المُمكنة، أو ما يعادِلها، إلى حدود الخوف من المهاتفة، واحمرار الوجنتين... ويقترح حلولاً عمليّة وملموسة لعلاجها.

غالبًا ما يقول الفرد: «عندما يزول خوفي، أصير سعيدًا!» فهل ذلك ممكن؟ كيف نُشفى من مخاوفنا ونتصالح مجدّدًا مع الحياة؟

فابيان أوليكار

لا تكن ضحيّة لأحد

دليلك لكَشْف التلاعب والمتلاعبين

ترجمة: محمّد فطّومي

في عالمٍ تسوده الأقنعة وتُحرّكه النوايا الخفيّة للسيطرة على الآخرين وتوجيههم من أجل تحقيق رغبات الذات وأهدافها، يُطالعنا موضوع «التلاعب» بوصفه حقيقةً لا مفرّ منها، من أجل حماية النّفس من الأذى، ومن أجل فهم ذواتنا وسلوكنا.

إنّنا جميعًا ضحايا للتّلاعُب، وممارسون له، في علاقاتنا الاجتماعية وبين الأصدقاء وحتّى في العمل... نتوَسَّلُ بـ«التلاعب» لنحصل على ما نريد. وأحيانًا كثيرةً يحدث ذلك دون وعي منّا. فإنْ كنتَ ترغب في إقناع صديق لك بالذهاب معك للتسوُّق، فستستخدم تلقائيًا كلّ الأدوات المتاحة لَدَيك: ستذكّره بما فعلتَهُ من أجله، ستُقدِّمُ له حُججًا تُوضِّحُ أنَّ الأمر سيكون سريعًا وممتعًا، وربَّما غيَّرتَ نبرةَ صوتكَ وقسماتِ وجهك لإغرائه وتحريك مشاعِره.

من السّياسة إلى التسويق، ومن المحادثات بين الأصدقاء إلى حَشْد الجَمَاهِير، يُقدّم لنا هذا الكتاب أمثلةً دقيقةً على وسائل التلاعب وآليّاته، وهو يضعنا بذلك على الضِفَّةِ الصَّحِيحَة من العالم، لا من أجل حماية أنفسنا فحسب، بل من أجل الحدّ من عاداتنا السيّئة في التلاعب بمشاعر الآخرين. ما الذي يحدث في أدمغتنا؟ هل هناك من هم أكثر مهارةً من غيرهم في التلاعب؟ وهل يمكن أن نصبح متلاعبي نوايا حسَنَة؟ ذاك ما يجيب عنه هذا الكتاب.

فابريس ميدال

أبواب السعادة الخمسة

في طاقات الإنسان المجهولة

ترجمة: د. علي مخلبي

هل تشعر بأنّ الحياة تضعك على مسارٍ يبدو خروجك عنه مستحيلاً، وبأنّ الأيّامَ والشّهورَ والسّنوات تمرّ فيما أنتَ مشدودٌ إلى الدّائرة نفسها؟ هل تبدو لك هذه الحياةُ شيئًا فاترًا، وآليًّا، وخاضعًا للضّرورات المادّيّة فحسب؟ هل فقدت الحماس الّذي كان يحرّك رغبتك في الاستيقاظ صباحًا والإقبال على الحياة؟

إذا فقدتَ صلتك بما ترغب فيه، وصرت عاجزًا عن الاندهاش، فتلك مأساة، لن تستطيع النّجاة منها بجلد الذات وتأنيب الضمير، فلا ذنب لك

في ما آلَ إليه وجودُك؛ إنّما أنت ببساطةٍ لم تجد بعدُ مفتاحَ الباب الّذي يكشف لك عن الطّاقات الكامنة فيك، وهي طاقاتٌ نمتلكها جميعًا. ومع مرور الوقت، فصلتَ نفسك عن جزءٍ من حياتك، وهو الجزء الأكثر أهمّية، إنّه الطّاقة الّتي بداخلك.

سيرافقُك هذا الكتاب من بابٍ إلى باب، ويمنحك مفاتيحها جميعًا حتّى تشعر أخيرًا بأنّك في منزلك، وتتعلّم كيف تتنفّس بشكلٍ طبيعيّ حينما تشعر بالاختناق.

ببساطة، إنّه يضعنا قبالة خمسة أبواب ويمنحنا خمسة مفاتيح للسعادة، وما علينا نحن إلّا أن نمسك مفتاحنا بقوّة وندير القُفل في المزلاج.

دومينيك لوكور

فنّ الأنانيّة

هل علينا حقًا أن نفكّر في الآخرين

ترجمة: د. علي مخلبي

متى كانت الأنانيّة بهذا الجمال؟

إنّنا نكره الأنانيّين، نراهم في عزلتهم مُثيرين للشفقة، أو ربّما كائنات مُؤذية ترفض أن تُسعد الآخرين. نحتفي بمن يُضحّي بنفسه من أجل سعادة الجماعة، نقدّمهم أبطالاً ونرفعهم رموزًا للمحبّة والفضيلة. لكن مَن قال إنّ العالم بهذه البساطة؟

في هذا الكتاب الجريء، يُمزّق دومينيك لوكور قناعَ الفضيلة عن وجوهنا، ويكشف حقيقةً نتغافل عنها جميعًا: الإيثار نفسه مُثقَلٌ بأنانيّة خفيّة. هذا ليس كتابًا آخرَ عن السلوك الجيّد، بل هو مواجهةٌ جريئةٌ مع النفس البشرية بكل تناقضاتها وازدواجيتها. بين أسطورة العملاق الأنانيّ لأوسكار وايلد، وصرامة لافونتين، يتساءل الكاتب: هل علينا حقًّا التفكير في الآخرين لنكون أخلاقيّين؟

سيدفعك هذا الكتاب إلى إعادة النظر في كلّ ما اعتقدت أنّك تعرفه عن نفسك وعن الآخرين. إنّه نصٌّ فلسفيّ ممتع، مستفزّ، ولكنّه ضروريّ. سيغيّر طريقتك في فهم الأخلاق والأنانيّة، وربما يجعلك تعيد صياغة أولويّاتك، أو ببساطة تتصالح مع أنانيّتك، وتدرك أنّ فيها شيئًا جميلاً، يُشبه الحياة نفسها.

فابريس ميدال

الأميرات دوما على حقّ

حكمة الحكايات والخرافات

للإفلات من فخاخ اليوم

ترجمة: د. العادل خضر

في عالمنا المضطرب اليوم، هل يُمكن للحكايات القديمة أن تُساعدنا على تجاوز ما يهدّد إنسانيتنا؟

هذا ما يُجيب عنه الفيلسوف الفرنسي فابريس ميدال في كتابه الرائع «الأميرات دوما على حق»، حيث يضع أمامَنا، من خلال أربعين حكاية خرافية وأساطير خالدة، الحكمةَ المنسيّة التي نحتاج إليها لنعيش حياةً حقيقيّةً وشُجاعة. إنّ هذه الحكايات لم تُروَ للأطفال فحسب، بل تُروى لنا نحن الكبار لتُعيدنا إلى ذواتنا، وتُحرّرنا من أغلال الخوف والجهل.

سنتعلّم مع سندريلا كيف نتوقّف عن الشكوى، ومع عقلة الإصبع قوّة العمل، ونُبحر مع أوديسيوس في سر اختيار إنسانيّتنا، وندرك مع حكاية «الأميرة وحبّة البازلاء» كيف يُمكننا أن نُعبّر عن حقيقتنا دون تكلّف، وأن نتعلّم من جديد الاستماع إلى أنفسنا، لنعثر على قوّة حبّنا، وقدرتنا على تجاوز مخاوفنا.

كتاب ميدال ليس مجرّد رحلة في عالم الخيال، بل هو دليل عملي يُعلّمنا أنّ الأبطال الحقيقيّين هم من يتجرؤون على الحياة ويحوّلون ضعفهم قوّةً، مهما تكن قسوة الظروف.

أنتوني دي ميلّو

هل أنتَ حيٌّ فعلا؟

الحقيقة بعيون العارفين

ترجمة: د. أميرة غنيم

تأتي لحظةٌ في حياتنا نتساءل فيها بصدق: هل نحن أحياء حقًّا؟ هل ما نشعر به هو الحياة فعلاً أم نحن نُكرّر الأيّام ونمرّ بها دون أن نعيشها؟

في هذا الكتاب تأمّلات عميقة وأسئلة جريئة تُخرجك من دائرة الحياة الروتينية لتجعلك تواجه ذاتك الحقيقية. يستكشف الكاتب بذكاء ولغةٍ شفافة معنى أن تكون حيًّا، وكيف يمكنك أن تجد طريقك نحو حياةٍ مليئة بالمعنى، بعيدًا عن القوالب الجاهزة التي يفرضها علينا المجتمع.

«هل أنت حيّ فعلاً؟» ليس مجرد سؤال، إنّه دعوة للبحث عن الحياة التي تستحق أن تُعاش، وفرصة لبدء رحلة جديدة نحو معنى حقيقي للوجود.

قال العاشق المكلوم: «إنّما أحرقتُ أصابعي مرّةً ولا نيّةَ لي في العشق ثانيةً». فقال له الحكيم: «أنتَ مثلَ هِرٍّ جلَسَ على الموقد فاكتوى، فأقسم ألّا يجلس أبدًا».

إنّ أثمن ما تنفقه في عمرك هو وقتك، فلا تبدّدْ منه لحظةً أخرى في عدم الشعور بالسعادة.

آنياس مارتان-لوغان

النَّاسُ السُّعَدَاء يَقْرَؤُونَ.. ويَشْرَبُونَ القَهْوَة

رواية

ترجمة: محمّد فطّومي

كيف لشخص اعتاد العيش بين ثلاثةٍ أن يتصالَحَ فَجْأةً مع العيش وحيدًا، لأنَّ الحياة قرّرت تغيير اتّجاهها؟

ستتخذ دِيانْ قرارًا بالمغادرة، بترك باريس والتَخلّي عن مقهاها الأدبيّ، لإنهاء الحلقة المفرغة التي ما انفَكَّت تَجْذِبُها إلى القاع وتسلبها روحَ المقاومة. لكن هل تكفي المسافة وحدها كي تداوي الجروح؟ وكيف يمكن للقلب أن يتقبّل الحياة مُجدّدًا حين تصبح كلّ ذكرى طعنةً جديدة؟

على امتداد الصفحات سنجد أنفسنا إزاء روايةٍ بطعم اللِّقاء، ستُشْعِرك آنياس مارتان-لوغان وهي تنحت شخصيّاتها بمهارة نادرة بأنّك كنتَ تجالسُ صديقًا ، تشرب معه القهوة ، تُخَمّنُ أفكارَه، وتتلَذّذُ صمتَه، مرّةً يجعلك تضحك بقوّة ومرّة يستدرج دمعةً من مُقلَتَيْك. لا تُحدِّثك آنياس عن شخوصها بل تفتح لك أفق مرافقتهم في رحلة بحثهم فتحتفل معهم وتشهَدُ ولادتهم. ولن تشُكَّ في أنّهم حقيقيّون إلّا عندما تُحاولُ التدَخُّل فلا تنجح.

رواية عميقة عن الفقد، والوحدة، والبحث اليائس عن معنى جديدٍ للحياة. رحلة مشحونة بالمشاعر والأسئلة، تذكّرنا بأنّ السعادة تكمن في أصغر التفاصيل وأكثرها بساطة، وبأنّ النجاة الحقيقيّة ليست في النسيان.

دولفين دو فيغان

الامتنان

هل نملك الوقت لنقول «شكرًا» قبل فوات الأوان؟ وهل الشكر مجرّد مجاملة؟ أم هو اعترافٌ دفينٌ بالدَّين الذي لا يُسدّ؟

«الامتنان» روايةٌ تأخذنا إلى أعماق الذاكرة، إلى الحيّز الهشّ بين الحياة والاحتضار، وبين الحضور والغياب.

في دار للمسنّين، تبدأ ميشكا، المرأة السبعينيّة، رحلتَها الأخيرة في مواجهة اللّغة والذاكرة معًا، بينما تحاول ماري، الشابة التي كانت ابنتها بالاختيار، أن تنتشلها من هاوية النسيان.

حوارٌ داخليٌّ مؤلم، بين ماضٍ لا يكتمل، وحاضر يتفتّت، ومستقبل غائم بلا مطر.

يُطلّ أخصائيّ النطق الشاب، جيروم، بمهنيته الهادئة، لكنّه سرعان ما يصبح شاهدًا على ما هو أعمق من فقدان النطق: فقدان المعنى.

ترسم دلفين دو فيغان في هذه الرواية مشهدًا خافتًا وحيًّا في آنٍ واحد، فيه تنزلق الكلمات، ويأخذ الحبُّ شكل الرعاية، و يتحوّل الامتنان إلى مقاومة.

روايةٌ عن الطفولة التي لا تنتهي، عن الشيخوخة التي تفضح كلّ شيء، وعن الرغبة الأخيرة في أن يُقال: شكرًا... كما ينبغي.

الناشر

ISBN: 978-9909-9847-6-5
9 789909 984765